أعلام المسلمين

٣١

السيدة خديجة رضي الله عنها

أم المؤمنين وسباقة الخلق إلى الإسلام

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٣١

السّيّدة خديجة

أمُّ المؤمنين
وسبّاقة الخلق إلى الإسلام

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

السَّيِّدَةُ خَدِيجَة ﵂

أُمُّ المؤْمِنِين

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هــذه السـيّدة

«آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء».

محمد رسول الله ﷺ

(ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة - وما رأيتها - ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد).

عائشة الصدّيقة

(كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدّق محمداً ﷺ فيما جاء به عن ربه، وآزره على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه: من ردٍّ عليه، وتكذيب له؛ إلا فرج الله عنه بها، تثبّته، وتصدقه، وتخفف عنه، وتهوّن عليه ما يلقى من قومه).

عبد الله بن عباس

(هي ممّن كَمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة ديِّنة مصونة كريمة).

الإمام الذهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النور المبين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن لهذا الكتاب قصة، إذ ضمني مجلس قبل أكثر من عام، فوجئت فيه بكبير المجلس، الذي كانت الأبصار ترنو إليه، يُخرج من طيات ثيابه كتيباً صغيراً، فتحه وشرع يقرأ منه على الحاضرين، الذين تحلّقوا حوله منصتين، وأنصتُّ مع القوم، وإذا بي أسمع كلاماً عجيباً منمقاً ومزوّقاً، ولكنه مليء بالأكاذيب والافتراءات، ومشحون بالضلالات.

كذب فيه المؤلف على سيدنا رسول الله ﷺ، وعلى أم المؤمنين السيدة الطاهرة خديجة رضي الله عنها، وحاول المؤلف أن يصور بأكاذيبه وافتراءاته علاقة السيدة

خديجة رضي الله عنها بالنبي ﷺ وكأنها تشبه العلاقات التي كنا نقرأ عنها ونحن صغار بين الأبطال والبطلات الأسطوريين الخرافيين.

واعترضت على القارىء، وعرّضت نفسي إلى نظرات الغضب من الحاضرين، وحاولت جاهداً أن أقنع القارىء بأن هذه الأخبار التي يقرأها أكثرها أكاذيب وافتراءات، وأن عليه أن يرجع إلى كتب السنة ليتأكد من صحة ما أقول له، ولكن الرجل أصرَّ على ما وقر في نفسه من أن الكتاب قد كتبه علماء محققون، ولم يكتبه قصاص كذابون دجالون.

ومنذ ذلك الوقت، ونفسي تحدثني بأن أكتب عن السيدة خديجة رضي الله عنها، وبقيت متردداً بين الإقدام والإحجام، حتى شجعني الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم، المُشرِف على إصدار سلسلة أعلام المسلمين، إذ رغب ـ حفظه الله ـ أن يزيِّن السلسلة بكتاب عن أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها.

ومما شجعني وشدَّ من عزيمتي أنني عندما قرأت ما كتب عن السيدة رضي الله عنها من كتب ومقالات، ما وجدتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، لأنها لم تصل إلى درجة الدراسة العلمية الشاملة المتأنية، التي تتناول

حياة السيدة رضي الله عنها من جميع جوانبها، مع تحقيق الروايات وتمحيصها.

ولقد جاء الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه في فصول خمسة:

الفصل الأول: السيدة خديجة والخِطبة والزواج.

الفصل الثاني: بيت النبوة.

الفصل الثالث: تثبيت وتصديق.

الفصل الرابع: مؤازرة ومصابرة.

الفصل الخامس: ذكرى خديجة.

ومن محاسن الصدف التي قدَّرها العليم الحكيم، أن يأتي الكتاب في العام الذي يشهد ضجة إعلامية مفتعلة، حول دعيّ ترك وطنه ومجتمعه، والتحق بمجتمع من أعرق المجتمعات عداوةً للإسلام وكيداً له، افترى على النبي ﷺ وعلى أمهات المؤمنين أعظم الفِرى وأقبح الأكاذيب، فوجد عندهم حماساً لترويج بضاعته وحمايته، ونشر أضاليله وأكاذيبه، وكان ذلك منهم صدىً للحرب الصليبية الضروس التي يشنونها على الإسلام والمسلمين منذ مئات السنين.

بَيْد أنهم سوف ينهزمون من جديد في قولتهم على الإسلام، كما انهزموا في جميع معاركهم التي أداروها

لهدم هذا الدين، فإنهم في كيدهم لهذا الدين كما قال القائل:

كناطحٍ صَخْرةً يوماً لِيُوهِنَها
فلم يَضِرْها وأوهَى قرنَه الوعلُ

وصدق سبحانه القائل: ﴿بل نقذفُ بالحق على الباطل فيدمَغُه، فإذا هو زاهقٌ، ولكم الويلُ مما تصفون﴾ (الأنبياء/١٨).

أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم الدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه.

مكة المكرمة في ٢٤/ ٧/ ١٤٠٩ هـ
٢/ ٣/ ١٩٨٩ م

الفقير إلى الله تعالى
عبدالحميد محمود طهماز
معهد الأئمة والدعاة التابع
لرابطة العالم الإسلامي

الفَصْل الأوَّل

السَّيِّدَة خَديجَة وَالخِطبَة وَالزَّواج

الفَصل الأوَّل

السَّيِّدة خديجة وَالخِطبة وَالزَّواج

اسمها ونسبها

هي خديجة بنت خُوَيلد، بن أسد، بن عبد العُزَّى، ابن قُصَيّ، من الذؤابة في قريش نسباً، وبيتاً، ومَحْتِداً، وشرفاً، يلتقي نسبها بنسب النبي ﷺ في الجد الخامس: قُصيٍّ بن كلاب، قال ابن هشام(١): كانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنَّ شرفاً، وأكثرهنَّ مالاً(٢).

وهي أقرب أمهات المؤمنين إلى النبي ﷺ في النسب، ولم يتزوج من ذرية جده قصيٍّ غير السيدة خديجة، والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما.

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، من أشهر كُتّاب السِّيَر. المتوفَّى ٢١٣ هـ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

والدها

كان خُوَيلد بن أسد، من أشراف قريش، ومن كبار رجالها وذوي الوجاهة فيها، ومما يدل على مكانته ووجاهته في قريش أنه كان في الوفد الذي أرسلته قريش إلى اليمن ليهنىء ملكها العربي سيف بن ذي يزن، عندما انتصر على الأحباش وطردهم من اليمن بعد عام الفيل بسنتين، أتاه وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ، وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، في ناس من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء في قصر له، يقال له غمدان(١).

والراجح أنه مات قبل حرب الفِجار كما سيأتي معنا.

وهي حرب حدثت بين قريش ومن معها من كنانة من جهة، وقيس عَيْلان من جهة ثانية، وكان عمر النبي ﷺ حينئذ أربع عشرة سنة، أو خمس عشرة سنة، قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، فيما حدثني أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو ابن العلاء، هاجت حرب الفِجار بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان(٢).

(١) انظر أخبار مكة للأزرقي ١/١٤٩.
(٢) السيرة النبوية ١/١٦٨.

وذكر بعد ذلك عن ابن إسحاق[1] أنه قال: هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة[2].

وسُميت الفجار لأنه وقع فيها قتال في الأشهر الحرم، وشهد ﷺ بعض أيامها، وقال بعد ذلك: «كنت أنبِّل على أعمامي» أي أرد عنهم نَبْل عدوهم إذا رمَوهم بها[3].

والـدة خديـجــة

لم يذكر المؤرخون وكتّاب السيرة شيئاً من الأخبار عن والدة السيدة خديجة رضي الله عنها، سوى اسمها ونسبها، فهي فاطمة بنت زائدة بن الأصم، يمتد نسبها إلى لؤي بن غالب الذي تنتسب إليه قريش، وبه تلتقي بنسب النبي ﷺ.

زواجها قبل النبي ﷺ

قُدِّر للسيدة خديجة رضي الله عنها أن تتزوج مرتين قبل أن تتشرف بالزواج من النبي ﷺ، وكان أولَ أزواجها عتيقُ بن عائذ المخزومي، مات عنها، ثم تزوجت أبا

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار، إمام في المغازي والسير، ويُعد أول من جمع المغازي وألفها، وثّقه كثير من العلماء، توفي سنة ١٥١ هـ. وله كتابان في السيرة: كتاب المبتدأ، وكتاب المغازي.

(٢) السيرة النبوية ١/ ١٧٠.

(٣) المرجع نفسه ١/ ١٧٠.

هالة بن النباش بن زرارة التميمي، حليف بني عبد الدار، ومات عنها أيضاً، وأنجبت منه هند بن أبي هالة رضي الله عنه، ربيب النبي ﷺ، إذ نشأ وتربى في حِجْره عليه الصلاة والسلام، كما سيأتي معنا.

وانصرفت رضي الله عنها بعد موت زوجها الثاني عن الزواج، ورفضت أن تتزوج أحداً ممن تقدم لخطبتها، وقد تقدم لخطبتها كثير من رجال قريش وأشرافها، وكلهم كان حريصاً على نكاحها لو قَدَر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال(١)، لشرفها وجمالها ومالها رضي الله عنها، وقد ألهمها الله تعالى أن تردَّ خُطَّابها وتعرض عنهم، لتتشرف بعد ذلك بالزواج من النبي ﷺ.

وانصرفت رضي الله عنها إلى تثمير مالها وتنميته في المهنة التي اشتهر بها قومها، وهي مهنة التجارة، والتي كانوا يرتحلون من أجلها إلى بلاد الشام واليمن في الصيف والشتاء، كما في قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رِحْلة الشتاء والصيف﴾(٢).

ولكونها أنثى ما كانت رضي الله عنها تخرج بمالها مسافرة، بل كانت تدفعه مضارِبةً للرجال ليتجروا لها فيه،

---

(١) سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢/٢٢٣.

(٢) سورة قريش ١ ـ ٢.

أو تستأجرهم لهذا الغرض. قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تُجَّاراً[1].

واشتهرت رضي الله عنها بأخلاقها الكريمة النبيلة، قال السُّهَيلي: خديجة بنت خويلد تُسمّى الطاهرة في الجاهلية والإسلام.

وفي سِيَر التيمي أنها كانت تسمَّى سيدة نساء قريش[2].

وقال الزبير بن بكار: كانت تدعى في الجاهلية الطاهرة[3].

وقال الذهبي رحمه الله: وهي ممَّن كمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة، ديِّنة مصونة كريمة[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧٠. والمضاربة عقد بين طرفين يقدم أحدهما المال، والآخر العمل، على أن يكون الربح بينهما، وقد أقر الإسلام هذا النوع من التعامل بشروط مبسوطة في كتب الفقه.

(٢) الروض الأُنف ١/ ٢١٥.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٦٠٠، أسد الغابة ٧/ ٧٨، الاستيعاب ٤/ ١٨١٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٠.

والأخلاق تجمع وتفرق، تجمع بين المتـآلفين في الأخلاق، وتفرق بين المتنـاقضين فيها، وقـد جمعت الأخلاق الكريمة بين الأمين محمد ﷺ، والطاهرة خديجة رضي الله عنها.

الأخلاق الصالحة الكريمة التي اشتهر بها النبي ﷺ، وامتاز بها على سائر أقرانه من شباب قريش، هي سبب التعارف بين النبي ﷺ والسيدة خديجة رضي الله عنها.

ولقد نشأ ﷺ متصفاً بكل خلق كريم، ومبرَّءاً من كل أمرٍ ذميم، أدّبه ربه سبحانه وتعالى فأحسن تأديبه، وشهد له عليه الصلاة والسلام ربُّه في القرآن الكريم بكمال الأخـلاق، فقـال سبحـانـه: ﴿ وإنَّـك لَعَلى خُلُق عظيم ﴾[1].

قال ابن هشام رحمه الله تحت عنوان: محمد ﷺ يشبُّ على مكارم الأخلاق: فشبَّ رسول الله ﷺ، واللّهُ تعالى يكلؤه، ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أنْ كان رجلاً أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنهم خُلُقاً، وأكرمهم حَسَباً،

---

(١) سورة القلـم ٤.

وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[1].

سمعت السيدة خديجة رضي الله عنها بأخلاق النبي ﷺ الكريمة، وما اشتهر به من الصدق والأمانة، وهي امرأة تاجرة تحتاج إلى الرجل الصادق الأمين لتأتمنه على مالها.

قال ابن الأثير رحمه الله: كان سبب تزوجها برسول الله ﷺ ما أخبرنا أبو جعفر، بإسناده، عن يونس، عن ابن إسحاق، قال: كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعِظَم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها، يقال له: مَيْسَرة[2].

---

(١) السيرة النبوية ١/١٦٧، ذكر ذلك أيضاً مؤلف سبل الهدى والرشاد ٢/١٩٨، وعزاه إلى داود بن الحصين فيما رواه ابن سعد وابن عساكر، وابن إسحاق فيما رواه البيهقي وغيره.

(٢) أسد الغابة ٧/٨٠.

طلب الرزق

نشأ النبي ﷺ يتيماً فقيراً، توفي أبوه عبد الله، وهو جنين في رحم أمه آمنة بنت وهب الزهرية القرشية، فقام جده عبد المطلب برعايته وكفالته، ولما بلغ الثامنة من عمره الشريف توفي جده عبد المطلب، وقام عمه أبو طالب بكفالته ورعايته، وضمه إلى عياله، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال، ولهذا حرص النبي ﷺ على العمل وطلب الرزق في باكورة عمره الشريف.

خرج ﷺ مع عمه أبي طالب إلى بلاد الشام، وعمره اثنتا عشرة سنة، ورآه راهب يقيم في صومعة قرب بُصْرى الشام، يدعى بَحيرَى فتفرَّس به مخايل النبوة، وتأكد من فراسته عندما رأى خاتم النبوة بين كتفيه الشريفين عليه الصلاة والسلام، فأوصى عمه أبا طالب أن يرجع به، وحذَّره عليه من مكر يهود وشرهم، فرجع به إلى مكة المكرمة.

وعمل ﷺ برعي الغنم، وصرَّح بذلك لأصحابه بعد بَعْثته عليه الصلاة والسلام، مما يدل على شدة تواضعه ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال له

أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكَبَاث(٢)، فقال: «عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه، فإني كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم»، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها»(٣).

وعندما اقترب ﷺ من الخامسة والعشرين من عمره الشريف، اتجه إلى العمل بالتجارة، كسائر رجال قريش.

الاتِّجارُ بمال خديجة

تذكر الروايات التي رواها ابن سعد، وابن السَّكَن، وأبو نُعيْم، عن نفيسة بنت مُنية(٤) قالت: لما بلغ

(١) رواه البخاري وابن ماجه.
والقراريط: إما جمع قيراط من أجزاء الدرهم، وإما اسم مكان، وذكر في بعض الروايات أنه أجياد.

(٢) الكباث: النضيج من ثمر الأراك، حبُّه فوق حب الكزبرة كما في المعجم الوسيط.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، والشيخان البخاري ومسلم.

(٤) كانت من صديقات السيدة خديجة، تنسب إلى أمها منية، وهي أخت يعلى بن أمية، ذكرها في الصحابة ابن حجر في الإصابة، وابن الأثير في أسد الغابة باسم: نفيسة بنت أمية.

رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين، لِمَا تكامل فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي؛ وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها، فيتَّجرون لها في مالها، ويصيبون منافع، فلو جئتها، وعرضت نفسك عليها، لأسرعتْ إليك، وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدّاً.

وغلب على رسول الله ﷺ حياؤه وعزَّة نفسه، فقال لعمه أبي طالب: فلعلها ترسل إليَّ في ذلك.

فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولِّي غيرك، فتطلب أمراً مُدْبراً.

فافترقا، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما كان من صدق حديثه، وعِظَم أمانته، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا.

ثم أرسلت إليه فقالت: إنه دعاني إلى البَعْث إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعِظم أمانتك، وكرم

أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

ففعل ﷺ، ثم لقي عمه أبا طالب، فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

وخرج رسول الله ﷺ مع غلامها مَيْسرة[1]، وقالت خديجة لميسرة: لا تعصِ له أمراً، ولا تخالف له رأياً[2].

ميسرةُ يتحدَّث

أُعجب ميسرة بأخلاق النبي ﷺ، وحسن معاملته، وصدق حديثه، ودُهش بما رأى من أمور خارقة عجيبة تحيط به ﷺ.

فعندما يشتد الحر في الهاجرة، تظلله ﷺ غمامةٌ، وتحجب عنه أشعة الشمس، وقد رآها أيضاً راهب من رهبان الصوامع في بلاد الشام يُدعى نسطورا، فدنا من

---

(١) قال الشيخ برهان الدين الحلبي المتوفَّى سنة ٧٥٣ هـ في كتابه نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس: لم أر لميسرة ذكراً في كتب الصحابة، والظاهر أنه توفي قبل البعثة، ولو أدرك النبي ﷺ لأسلم.
وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في القسم الأول، وقال: لم أقف على رواية صحيحة بأنه بقي إلى البعثة، فكتبته على الاحتمال. سبل الهدى والرشاد ٢/٢١٩.

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد ٢/٢١٥.

النبي ﷺ فقبَّل رأسه وقدميه، وقال له: أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة(١).

ويسر الله للنبي ﷺ ولميسرة في التجارة، وربحا ربحاً وفيراً، وعاد ميسرة إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فحدثها بما رأى من أحوال النبي ﷺ العجيبة، وأخلاقه الكريمة وشمائله الرفيعة.

وتذكر بعض الروايات أن السيدة خديجة رأت الغمامة بنفسها، وهي تظلل النبي ﷺ، عندما رجع ﷺ إليها، وكانت جالسة في غرفة عالية لها، مع بعض نساء قومها(٢).

وتذكرت السيدة خديجة رضي الله عنها، وهي تستمع إلى حديث ميسرة عن رسول الله ﷺ، كلمةً سمعتها من يهودي، قال ابن إسحاق: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهنَّ يهودي، فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكنَّ نبي، فأيكنّ استطاعت أن تكون فراشاً له، فلتفعل. فحصبه النساء، وقبَّحنه، وأغلظنَ له، وأغضت خديجة على قوله، ولم تَعْرِضْ فيما عرض فيه النساء، ووقر ذلك في نفسها.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢١٥.

(٢) المرجع نفسه ٢/٢١٦.

ولما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات، وما رأته هي، قالت: إن كان ما قاله اليهودي حقاً، ما ذلك إلا هذا[1].

وأرادت رضي الله عنها أن تتثبت من هذه الفكرة التي تتردد في نفسها، فذهبت إلى ابن عم لها، يُدعى: وَرَقة ابن نوفل بن أسد بـن عبد العُزَّى، وكان قد تنصَّر وقرأ كتب أهل الكتاب، فذكرت له ما أخبرها ميسرة من شأن النبي ﷺ، فقال لها: لئن كان هذا حقاً يا خديجة، إن محمداً لنبيٌّ هذه الأمة، وعرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر، هذا زمانه[2].

أمنـيـة خـديجـة

كل ذلك جعل قلب السيدة خديجة رضي الله عنها يتعلق بالنبي ﷺ، ويمتلىء حباً له وإعجاباً به عليـه الصلاة والسلام، وكيف لا تحبه وهو أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً ﷺ، وكيف لا تهفو نفسها إليه، وهو أنضر الشباب وجهاً، وأكملهم رجولةً ﷺ؟!.

ولكن أنى السبيل إليه؟ وما هي الوسيلة التي تقربها منه ﷺ؟ كيف تجعله يفكر في الزواج منها، ويتقدم

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٢.

(٢) ذكره ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق ١/١٧٥.

لخطبتها؟ وقد جرت أعراف الناس وتقاليدهم أن تكون المرأة مخطوبة لا خاطبة، ومطلوبة لا طالبة.

ولم تلحظ السيدة خديجة على النبي ﷺ أنه يفكر بالزواج، ولم تر منه عليه الصلاة والسلام أيَّ التفات إلى النساء، فلم تر بصره يرتفع إلى وجهها أو وجه غيرها من النساء، ولا شك أن المرأة بإحساس الأنوثة تستشعر إن كان الرجل يهتم بها أو ينظر إليها.

ولقد دلت بعض الروايات أنه ﷺ ما كان في ذلك الوقت يفكر في الزواج، لا من خديجة ولا من غيرها، بسبب قلة ما في يده من المال. فقد ذكر الزهري في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث عندها، فلما قام من عندها جاءت امرأة فقالت: خاطباً يا محمد؟ فقال: كلا، فقالت: ولـمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة إلا تراك كفؤاً لها[1].

ولا شك أن السيدة خديجة رضي الله عنها حزنت عندما سمعت من النبي ﷺ كلمة (كلا)، ثم فرحت بعد ذلك عندما سمعت قول المرأة الذي يدل على أن خديجة رضي الله عنها تراه كفؤاً لها كما تراه سائر نساء قريش.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٢.

إنها الكلمة التي تنتظرها السيدة خديجة، فهي التي مهدت لها الطريق لتصل إلى أمنيتها الكبرى بالزواج من النبي ﷺ.

مقدمات الخطبة

اتفقت الروايات كلها على أن السيدة خديجة رضي الله عنها هي التي خطبت النبي ﷺ لتتشرف بالزواج منه، وأنها هي التي مهدت لإجراءات الخطبة، وتجاوزت رضي الله عنها بهذا كل الأعراف والتقاليد التي تجعل الرجل هو الخاطب الذي يتقدم لخطبة المرأة، ولها كل العذر في ذلك، فمثل النبي ﷺ تخطبه النساء، وما من امرأة إلا تتمناه لنفسها زوجاً، وتبذل كل ما تستطيع لتصبح زوجة له.

واختلفت الروايات في وصف ما فعلت السيدة خديجة رضي الله عنها لتجعل النبي ﷺ يتقدم لخطبتها.

ذكرت بعض الروايات أن السيدة خديجة عرضت نفسها على النبي ﷺ، وصرَّحت له برغبتها أن تكون زوجة له.

وذكرت روايات أخرى أنها أرسلت إليه بعض النساء لكي يتكلمن معه في موضوع الخطبة.

ويمكن الجمع بين الروايات والتوفيق بينها على الوجه الآتي:

تحدثت السيدة خديجة رضي الله عنها مع بعض خاصتها من النساء عن أمنيتها ورغبتها في أن تصبح زوجة للنبي ﷺ، وكان الحديث مع أختها هالة بنت خويلد، وصديقتها نفيسة بنت منية، وطلبت منهما أن يساعداها في تحقيق رغبتها، وقامت كل واحدة بدور في التمهيد للخطبة المباركة.

أما هالة، فذكرت بعض الروايات أنها تحدثت مع عمار، ويبدو أنه عمار بن ياسر، الذي قال: مررت أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة، فنادتني، فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله ﷺ، فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزوج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته، فقال: بلى لعمري[1].

وأما صديقة خديجة: نفيسة بنت منية، فروى ابن سعد عنها أنها قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جَلْدةً شريفةً، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٢.

قدر على ذلك، قـد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قلت: فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «فمن هي»؟ قلت: خديجة، قال: «وكيف لي بذلك»؟ قالت: قلت: عليَّ، قال: «فأنا أفعل»(١).

ولما علمت رضي الله عنها برغبة النبي ﷺ بها أرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، وبينت له الدوافع التي دفعتها إلى الزواج به فقالت: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسِـطتك(٢) في قـومك، وأمـانتك، وحسن خُلقك، وصدق حديثك(٣).

ولم تذكر له رضي الله عنها دوافعها الأخرى للزواج به، وما ترجوه من شأن كبير، لأنها أمور مغيبة مستقبلة، لا يمكن الجزم بها.

الخطبة المباركة والزواج الميمون

وتحدث النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في موضوع

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٣.

(٢) من الوسط، من أوصاف المدح في النسب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٧٣.

زواجه بالسيدة خديجة، وأخبره بما حدث معه، فوافق عمه على أن يتقدم لخطبتها، وذهب مع عشرة من وجوه بني هاشم إلى عمها عمرو بن أسد، فخطبها منه، فزوجه، وقال: هذا الفحل لا يُقدَع أنفُه[1].

وخطب أبو طالب يومئذ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معدّ، وعنصر مضر، وجعلنا حَضَنَةَ بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس.

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله، لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قِلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّداقِ حكمكم، عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونَشَّاً[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٣. ومعناها: لا يضرب أنفه، تقال لمدح الكريم الشريف، والمراد منها أنه لا يُرَدّ، وقد قال مثلها أبو سفيان عندما علم أن النبي ﷺ تزوج ابنته.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٤. والضئضىء: الأصل والمعدِن. والعنصر: الأصل، وشجرة النسب الشريف تمتد إلى مضر بن نزار ابن معد بن عدنان.

والجدير بالذكر هنا أن النشّ نصف أوقية، والأوقية: أربعون درهماً، فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم.

وهذا المقدار يتفق مع ما جاء في الحديث الصحيح أن أبا سلمة ابن عبد الرحمن سأل السيدة عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً. ثم قالت: أتدري ما النش؟ قال: قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه[1].

وهو أصح مما ذكره ابن هشام في السيرة أن النبي ﷺ أصدق السيدة خديجة عشرين بكرة[2].

وذكر ابن هشام في سيرته أيضاً أن حمزة بن عبد المطلب هو الذي خطب السيدة خديجة، وأنه خطبها من أبيها خويلد بن أسد، وغير معقول أن يتولى حمزة الخطبة بوجود أبي طالب، لأن أبا طالب أكبر سناً من حمزة، وهو الذي كفل النبي ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب، ومر معنا أن أباها خويلد مات قبل حرب الفجار، وقد صحح السهيلي أن عمها عمرو بن أسد هو الذي تولى تزويجها، وأيد رأيه بما رواه الطبري عن جبير

(١) صحيح مسلم.
(٢) أي ناقة فتية.

ابن مطعم، وعن ابن عباس، وعن عائشة رضي الله عنهم، أن عمرو بن أسد هو الذي أنكح خديجة رسول الله ﷺ، وأن خويلداً كان قد هلك قبل الفجار[1].

روايات منكرة وباطلة

ويجب التنبيه هنا إلى ضعف الروايات التي ذكرت أن السيدة خديجة رضي الله عنها احتالت على أبيها خويلد، لكي يزوجها بمحمد ﷺ.

فقد ذكر الزهري في سيرته أن خويلداً أباها زوجها منه، فألقت عليه خديجة حُلَّةً، وضمَّخته بخَلُوق، فلما صحا من سُكْره، قال: ما هذه الحلة والطيب؟ فقيل: إنك أنكحتَ محمداً خديجة، وقد ابتنى بها، فأنكر ذلك، ثم رضيه وأمضاه[2].

وعند أحمد والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، فيما يحسب حماد، أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أباها ونفراً من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة: إن محمد بن

---

(١) الروض الأنف ١/٢١٣.

(٢) المرجع نفسه ١/٢١٤.

عبد الله يخطبني، فزوجني إياه، فزوجها إياه، فخلَّقته ـ طيَّبته بالخلوق ـ وألبسته حلة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سُرِّيَ عنه سُكْرُهُ، نظر فإذا هو مخلَّقٌ وعليه حُلةٌ، فقال: ما شأني؟ ما هذا؟ قالت: زوجتني محمد ابن عبد الله، فقال: أنا أزوج يتيم أبي طالب؟! لا لعمري، قالت خديجة: ألا تستحيي؟ تريد أن تسفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران، فلم تزل به حتى رضي[1].

وثمة رواية ثالثة فيها أمور مستنكرة أكثر من هاتين الروايتين رواها الطبراني عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه، أو عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: كان النبي ﷺ يرعى غنماً، فاستعلى الغنم، فكان في الإبل، وهو وشريك له، فأكريا أخت خديجة فلما قضَوا السفر، بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيها فيتقاضاها، ويقول لمحمد: انطلق، فيقول: اذهب أنت فإني أستحيي.

فقالت: ما رأيت رجلاً أشد حياءً، ولا أعف، ولا، ولا... فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه، فقالت: ائت أبي فاخطبني، قال: أبوك رجل كثير المال

---

(١) حياة الصحابة ٢/٦٥٧.

وهو لا يفعل، قالت: انطلق فالقه فكلمه فأنا أكفيك، وائت عند سكره، ففعل، فأتاه فزوجه، فلما أصبح جلس في المجلس، فقيل له: أحسنت زوجت محمداً، فقال: أو قد فعلت؟ قالوا: نعم، فقام فدخل عليها، فقال: إن الناس يقولون: إني قد زوجت محمداً، قالت: بلى، فلا تُسَفِّهَنَّ رأيك، فإن محمداً كذا، فلم تزل به حتى رضي.

ثم بعثت إلى محمد ﷺ بأوقيتين من فضة أو ذهب، وقالت: اشتر حُلةً، واهدها لي، وكبشاً، وكذا وكذا[١].

ليت صاحب كتاب حياة الصحابة أعرض عن مثل هذه الروايات المنكرة المخالفة للأحاديث النبوية الصحيحة، التي ذكرت أنه عليه الصلاة والسلام رعى الغنم فقط، فلم ينتقل ﷺ من رعاية الغنم إلى الإبل، وما عُرف عنه ﷺ أنه اشتغل عند أخت خديجة، كما لم يعرف عنه ﷺ أنه حضر مجلس خمر وسكر، فكيف يرضى أن يتزوج بهذه الطريقة، وهو عليه الصلاة والسلام ذو الخلق الكريم الرفيع!!.

ثم إن ما في هذه الروايات يتنافى أيضاً مع ما عرف من أخلاق أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها ونبلها وشرفها، وهي تخالف أيضاً ما سبق تصحيحه من

---

(١) حياة الصحابة ٢/٦٥٢.

أن عمها عمرو بن أسد هو الذي تولى تزويج السيدة خديجة لأن أباها قد هلك قبل حرب الفجار، كل ذلك يجعلنا نرى أنها روايات منكرة باطلة.

والعجيب أن بعض الروايات الباطلة أشركت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في موضوع الزواج، مع أنه لم يكن قد ولد بعد، فإحداها ذكرت أنه ضمن المهر، وأضافت أخرى أن علي بن أبي طالب قال: أرسلني أبي أنه يضمن لكم المهر فزوجوه[١].

وغفل مختلقو هذه الروايات أنه رضي الله عنه ولد بعد زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة بخمس سنوات.

عُمر الزوجين

كان العرب في حياتهم الاجتماعية في ذلك الوقت لا يهتمون بفارق السن بين الزوجين، وكتب السنة والسيرة والتاريخ حافلة بأخبار ووقائع تدل على أنهم ما كانوا يعيرون أي التفات إلى وجود فارق كبير بين عمر الزوجين، إذ الكفاءة في النسب والحسب والعشيرة والقبيلة هي أهم الأمور في علاقاتهم الاجتماعية، بل هي الأساس الأول في نظرهم لبناء الأسرة والزواج.

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٥.

ثم إن الحياة البسيطة التي كانوا عليها في معيشتهم وسلوكهم ومعاملاتهم، سهلت أمر الزواج، ولم تجعل من فارق السن بين الزوجين مشكلة تعوِّق مسيرة الحياة الزوجية، وتعكِّر صفو العلاقة بين الزوجين، كما هو الحال والواقع في حياتنا الاجتماعية المعاصرة.

ومع وجود فارق في السن بين النبي ﷺ والسيدة خديجة رضي الله عنها، فلقد كانا أسعد زوجين وأكرم عروسين، وسيأتي معنا إن شاء الله ما يؤكد هذه الحقيقة، فقد حزن ﷺ على وفاة خديجة وفراقها حزناً شديداً، وظل يذكرها رضي الله تعالى عنها حتى آخر حياته، مع أنه تزوج بعدها عدداً من النساء، ولم يتزوج في حياتها غيرها رضي الله عنها.

واختلفت الروايات في قدر عمر النبي ﷺ وعمر خديجة عندما تزوجا، وجمهور العلماء أن عمره ﷺ كان خمساً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: تسعاً وعشرين، وقيل: ثلاثين، وقيل: سبعاً وثلاثين.

قال ابن إسحاق في المبتدأ[1]: وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً، عقب

---

(١) مبتدأ الخلق: وهو تاريخ النبي ﷺ لابن إسحاق حتى الهجرة.

صفر سنة ست وعشرين[1] من مولده الشريف، فيكون عمره خمساً وعشرين سنة.

وقال في الغُرَرِ[2]: وهو الصحيح الذي عليه الجمهور، وقطع به أبو عمرو الحافظ عبد الغني المقدسي، والأقوال الأربعة الأخرى ضعيفة، ليس لها حجة تقوم على ساق[3].

وجزم ابن هشام في سيرته بذلك أيضاً، فقال: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة[4].

وأما عمرها رضي الله عنها، فأصح الأقوال أنه أربعون سنة. صحَّحه في الغرر، وقيل: خمساً وأربعين، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمانية وعشرين[5].

وأسند الواقدي من طرق أنها حين تزويجها كانت بنت أربعين سنة[6].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٥.

(٢) هو كتاب الغرر المضيَّة في شرح نظم الدرر السنية. وهو شرح لألفية العراقي في نظم السيرة النبوية، ألفه شهاب الدين بن الهائم المتوفى سنة ٧٩٨ هـ.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٥.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٧١.

(٥) سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٥.

(٦) الإصابة ٧/٦٠٢.

قال ابن الأثير رحمه الله: وكان عمرها حينئذ أربعين سنة[1].

وقال ابن عبد البر: وكانت إذ تزوجها رسول الله ﷺ بنت أربعين سنة[2].

ولا شك أن أوضاعنا الاجتماعية المعاصرة وعلاقاتنا الاجتماعية تختلف اختلافاً كبيراً عن الأوضاع الاجتماعية للمجتمع العربي في ذلك العصر، وهذا ما جعل بعض الكتاب المعاصرين يستبعدون ما ذكره الجمهور أن عمر السيدة خديجة رضي الله عنها كان أربعين سنة عندما تزوجت بالنبي ﷺ، ويميلون إلى ترجيح الرواية الضعيفة أن عمرها كان ثمانية وعشرين سنة.

كتب أحدهم قائلاً: كانت السيدة خديجة في نهاية عامها الثامن والعشرين، وفي هذا السن اكتمل النضج والشباب... وهي تحتفظ بالكثير من جمال الصبا وروعة الأنوثة، التي تفتحت على الرفاهة واليسر.

ثم أضاف في حاشية الكتاب فقال: هذا على خلاف من يذكرون بأنها كانت في الأربعين، إذ تبين بعد

---

(١) أسد الغابة ٧/ ٨٠.

(٢) الاستيعاب ٤/ ١٨١٨.

التحقيق الدقيق صدق ما ورد في بعض المراجع المعتمدة[1].

وليت الكاتب أفادنا بهذا التحقيق الدقيق، وذكر لنا بعض مراجعه المعتمدة.

وقال كاتب آخر: ونحن نميل إلى الرأي القائل بأنها كانت في سن تجاوزت به الخامسة والعشرين، فكانت في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين.

ثم جعل من نفسه كاتب عقود الزواج، ومسجل وقائع الوفيات، ليؤكد رأيه فقال: فلقد تزوجت زوجها الأول عتيق بن عابد، وهي تقريباً في سن الرابعة عشرة، إن لم يكن أقل من ذلك، كما هي عادة البيوتات العريقة في ذلك العصر. . . وكانت ولوداً، فولدت له عبد الله، ولم تطل إقامتها معه أكثر من سنتين أو ثلاث، إذ توفي وتركها، ولم يطل ترملها، فقد تقدم لها هند بن زرارة. . . وترملت مرة ثانية، وقد جاوزت العشرين بقليل، وزهدت موقتاً في الزواج وهي في سن النضارة والشباب[2].

---

(١) سيرة نبي الهدى والرحمة ص ٦٨.

(٢) انظر أم المؤمنين خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين.

ولا أدري من أين حصل على هذه الأرقام، وكيف عرف أن زواجها الأول والثاني أيضاً لم يدوما أكثر من سنتين أو ثلاث سنين!!.

وعلى كلٍ فالأمر لا يحتاج إلى كل هذا التكلف والعناء حتى نرد الروايات الصحيحة التي أكدها جمهور العلماء، فلكل عصر صفاته المميزة له عن غيره من العصور.

ومما يؤكد أن عمر السيدة كان أربعين سنة عندما تزوجها النبي ﷺ أن عائشة رضي الله عنها عندما استبدت بها الغَيْرة من كثرة ذكر النبي ﷺ لخديجة، قالت له: (ما تذكر من عجوز من عجائز قريش. . .) الحديث، وهو في صحيح البخاري، وسيأتي معنا كاملاً إن شاء الله تعالى.

فلو لم تكن السيدة عائشة تعلم أن السيدة خديجة كانت متقدمة في السن عندما تزوجها النبي ﷺ ما وصفتها بأنها عجوز من عجائز قريش.

الفصل الثاني

بيت النبوة

الفَصْلُ الثَانِي
بَيْتُ النُّبُوَّةِ

الزوجة الكريمة الصالحة

وبنى النبي ﷺ بزوجته السيدة خديجة رضي الله عنها في بيتها، فكانا أسعدَ زوجين وأكرم عروسين، ونالت رضي الله عنها شرف اللقب الذي كرم الله تعالى به زوجات النبي ﷺ بقوله سبحانه: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجُه أمهاتهم. . .﴾ الآية[1]، فكانت بحق أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها.

وعاش النبي ﷺ معها في بيتها، وكان بيتاً كسائر بيوت مكة، ولم يكن كما تصوره بعض الكتاب المعاصرين قصراً، فلم يسكن النبي ﷺ القصور، وما كان في يوم من أيام حياته من سكانها، ومكة ذات الشِّعاب والجبال ما كانت تعرف في ذلك الوقت القصور.

---

(١) الأحزاب ٦. انظر ما كتبه المؤلف في تفسير الآية في كتابه: النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.

وينبغي التنبيه هنا إلى أن بعض الكتاب المعاصرين قد بالغ كثيراً في وصف ثراء السيدة خديجة واتساع تجارتها وكثرة أموالها حتى زعم أنها كانت تحتكر تجارة العطور والديباج والحرير، ولا أدري من أين حصل على هذه المعلومات التي ذكرها في قوله: (كانت رضي الله عنها تتمتع بشهرة عظيمة في البلاد التي تصل إليها تجارتها، وذلك في الشام والعراق وفارس وبلاد الروم، لعراقة بيتها في الشرف من ناحية، ولاستيلائها من ناحية أخرى على تجارة العطور والديباج والحرير في الهند واليمن وبلاد فارس، وكانت قوافلها التي تصل إلى الآلاف من الجمال، تنقل التجارة إلى أسواق هذه البلاد وغيرها، فيُقبِل الأغنياء عليها، بل لقد كان للسيدة خديجة عمال من الروم والغساسنة والفرس في دمشق والحيرة وفي عاصمة كسرى)[1].

وما أدري كيف شطَّ الخيال بالمؤلف حتى جعل السيدة خديجة تقوم على رأس مؤسسة مالية كبيرة، تصل قوافلها إلى الآلاف من الجمال... إلخ، مع أنه ذكر في موضع قريب في كتابه أنه ﷺ اتفق معها أن يسافر لها

---

(١) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين ص ٦١ عن كتاب سيد قريش.

سفرتين بقلوصين[1] فكيف أصبحا بعد ذلك آلافاً من الجمال؟!!.

وقدمت رضي الله عنها للنبي ﷺ نفسها كما قدمت له مالها، وتفانت في طاعته وخدمته، وتهيئة كل أسباب السعادة والراحة له ﷺ، فكانت بحق الزوجة المثالية الكريمة الصالحة.

كانت رضي الله عنها تتولى خدمة النبي ﷺ بنفسها، ولا تكلف أحداً غيرها بذلك، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هـذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قَصَب، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب[2].

وفي الحديث مناقب جليلة للسيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال ابن حجر رحمه الله: كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها[3].

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٨.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) فتح الباري ١٣٨/٧.

ولعل ابن حجر رحمه الله أشار إلى ما حدث عندما سألت أمهات المؤمنين النبي ﷺ أن يوسِّع عليهن بالنفقة، فغضب ﷺ واعتزلهن شهراً في مَشْرُبة له ـ غرفة عالية ـ حتى أنزل الله تعالى عليه آيتي التخيير، فقال: ﴿ يا أيها النبيُّ قُلْ لأزواجِك إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سراحاً جميلاً. وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ ورسولَه والدارَ الآخرة فإن اللّه أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾[1].

والجزاء من جنس العمل، ولهذا بشرها جبريل ببيت في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب. كما جاء في الحديث الشريف.

قال السهيلي رحمه الله: دعاها إلى الإيمان، فأجابته عفواً، ولم تحوجه أن يصخب كما يصخب البعل ـ الزوج ـ إذا تغضَّبت عليه حليلته، ولا أن ينصب، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة وهوَّنت عليه كل مكروه، وأراحته بمالها من كل كدٍّ ونصب[2].

امتلأ قلبها رضي الله عنها بحب النبي ﷺ وتقديره

(١) الأحزاب ٢٨ ـ ٢٩. وانظر تفصيل الموضوع في كتاب: النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب للمؤلف.

(٢) الروض الأنف ١/٢٧٩ والسيرة النبوية لابن كثير ٢/١٣٣.

واحترامه، وهي ترجو أن يكون له شأن كبير.

روى الفاكهاني في كتاب مكة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له، وبعث بعده جارية يقال لها نبعة، فقال لها: انظري ما تقول له خديجة. قالت نبعة: فرأيت عجباً، ما هو إلا أن سمعت به خديجة، فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده، فضمتها إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث، فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي، وادعُ الإله الذي يبعثك لي. قالت: فقال لها: «والله لئن كنت أنا هو، قد اصطنعتِ عندي ما لا أضيّعه أبداً»(١).

وعرف ﷺ للسيدة خديجة أم المؤمنين حقها ومنزلتها، وبادلها حباً بحب، ووفاءً بوفاء، فلم يتزوج غيرها في حياتها، وصان قلبها من الغَيْرة عليه ﷺ، وعاش معها وحدها أكثر مما عاش مع غيرها، فقد عاش ﷺ بعد أن تزوج السيدة خديجة ثمانية وثلاثين عاماً، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين.

---

(١) فتح الباري ١٣٤/٧.

وبقي ﷺ على محبتها والوفاء لها إلى أن توفاه الله تعالى، وقد صرح بحبه لها للسيدة عائشة رضي الله عنها، وقال لها: «إني قد رُزقت حبها»(١).

فحبه ﷺ للسيدة خديجة فضيلة تفضَّل الله تعالى بها عليه ﷺ.

سيـــدة البيـــت

وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها ولوداً ودوداً منجبة، وهذا من محاسن المرأة، يدل على استواء بنيتها، وكمال أنوثتها. وقد أوصى ﷺ بالزواج بالمرأة الولود، فعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الوَدود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم»(٢).

وكل أولاد النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها، عدا إبراهيم الذي ولدته السيدة مارية القبطية رضي الله عنها، التي أهداها للنبي ﷺ المقوقس حاكم مصر.

وأجمع العلماء على أن السيدة خديجة أم المؤمنين

---

(١) صحيح مسلم.
(٢) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه وللحديث قصة. انظر الترغيب والترهيب ٣/٤٦.

ولـدت للنبي ﷺ أربع بنـات، كلهن أدركنْ الإسلام وأسلمْنَ وهاجرْنَ، وهن: السيدة زينب، والسيدة رقية، والسيدة أم كلثوم، والسيدة فاطمة رضي الله تعالى عنهن. وسيأتي معنا إن شاء الله شيء من أخبارهن.

وأجمعوا أيضاً أنها ولدت له ابناً يسمى القاسم، وبه كان يكنى ﷺ. جاء في الحديث الشريف الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نادى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني لم أَعْنِكَ، إنما دعوتُ فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «تسمُّوا باسمي، ولا تَكْتَنُوا بكُنيتي»[١].

واختلفوا هل ولدت السيدة خديجة غيرهم؟ قال ابن شهاب الزهري: زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولداً يسمى الطاهر، وقال بعضهم: ما نعلمها ولدت له إلا القاسم[٢] أي ولداً ذكراً.

وبلغ القـاسم المشي على قدميـه، وقدر سبحـانه أن يمـوت قبل أن يُفـطم، ففي مسند الفـريـابي أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي تبكي، فقالت: يا رسول الله، درَّتْ لُبَيْنَةُ القاسم، فلو كان عـاش حتى

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، والنهي مقيد بزمنه ﷺ دفعاً للالتباس.
(٢) الاستيعاب ٤/١٨١٨.

يستكمل رضاعته لهوَّنَ عليَّ، فقال: «إن له مرضعاً في الجنة تستكمل رضاعته»، فقالت: لو أعلم ذلك لهوّن عليَّ، فقال: «إن شئت أسمعتك صوته في الجنـة» فقالت: بل أصدق الله ورسوله[1].

ويدل الحديث الشريف على قوة مشاعر الأمومة ورهافتها عند السيدة خديجة رضي الله عنها، وهي من الصفات المحمودة عند المرأة، فمما يُذمُّ في المرأة استرجالها وقسوتها وخشونة طبعها، ولهذا ذم النبي ﷺ الرَّجُلةَ من النساء التي تتشبه بالرجال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[2].

وذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق أن خديجة ولدت للنبي ﷺ أيضاً من البنين: الطاهر، والطيب[3].

لكن بعض العلماء، نفى ذلك، ورأى أنهما لقبان للقاسم لُقّب بهما، لأنه ولد بعد البعثة النبوية، وأن اسمه الذي سُمي به أولاً هو عبد الله. والله سبحانه أعلم.

وقد تردد ابن حجر رحمه الله في هذا الموضوع،

---

(١) الروض الأنف ١/٢١٤.

(٢) رواه البخاري وأصحاب السنن.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٧٤.

فقال: المتفق عليه من أولاده منها: القاسم، وبه كان يكنى، مات صغيراً قبل المبعث، أو بعده، وبناته الأربع: زينب ثم رقية، ثم أم كلثوم ثم فاطمة، وعبد الله ولد بعد المبعث، فكان يقال له: الطاهر والطيب، ويقال: هما أخوان له، ومات الذكور صغاراً باتفاق[1].

فالسيدة خديجة رضي الله عنها أم أولاد النبي ﷺ، وسيدة بيته قبل البعثة وبعدها، ولهذا قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، الذي مر معنا في حديث أبي هريرة: «وبشِّرْها ببيت...».

وعلق السهيلي على ذلك فقال: لذكر البيت معنى لطيف، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام، منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بُعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها، وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه، وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت، دون لفظ القصر[2].

نقل ابن حجر هذا الكلام في كتابه فتح الباري عن

---

(١) فتح الباري ١٣٧/٧.
(٢) المرجع نفسه ١٣٨/٧.

الروض الأنف، وقد تصرف فيه تصرفاً يسيراً، ثم أضاف إليه قوله:

(وفي ذكر البيت معنى آخر، لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها، لما ثبت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، قالت أم سَلَمة: لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين، فجللهم بكساء، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»، أخرجه الترمذي وغيره، ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة لأن الحسنين من فاطمة، وفاطمةُ بنتها، وعلي نشأ في بيت خديجة، وهو صغير، ثم تزوج بنتها بعدها، فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة دون غيرها)(١).

وما قرره ابن حجر صحيح، إلا أن سائر أمهات المؤمنين يدخلن في الآية الكريمة دخولاً أولياً، لأن الخطاب فيها لهن جميعاً رضي الله عنهن(٢).

بيت خديجة

عاشت السيدة خديجة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في بيتها، في ظل رعاية الله تعالى ورحمته وكِلاءته، وكما

---

(١) فتح الباري ٧/١٣٨.

(٢) انظر النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.

أصبحت رضي الله عنها سكناً للنبي ﷺ، أصبح بيتها مسكناً له عليه الصلاة والسلام.

وكان زواجه منها من نعم الله سبحانه التي أنعم الله عليه بها، وأشار إليها بعد ذلك في قوله الكريم: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ قال بعض علماء التفسير: أغناك بمال خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[1].

وامتلأ البيت بالنور والحب والحنان، ودبَّت في جنباته حياة جديدة مزينة بأسمى العـواطف وأنبل المشـاعر، عواطف الأبوة الرحيمة، ومشاعر الأمومة الكريمة، وأخذ الأطفال والأولاد يمرحون ويلعبون في جنباته.

فلقد ضم البيت إلى جانب أطفال خديجة رضي الله عنها من النبي ﷺ، ولدها من زوجهـا السابق: هند بن أبي هالـة ربيب النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب، وزيد ابن حارثة، وأم أيمن حاضنة النبي ﷺ. ولكل واحد منهم شأن في تاريخ الإسلام وخبر.

هند بن أبي هالة

هـو هنـد بن أبي هـالـة الأسـدي التميمي ربيب

(١) انظر فتح القدير ٥/٤٥٨.

رسول الله ﷺ، أسلم وهاجر إلى المدينة المنورة، وحضر بدراً، وقتل يوم الجمل، وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان رضي الله عنه فصيحاً بليغاً وصّافاً، وصف رسول الله ﷺ فأحسن وأتقن[1]، لأنه عاش في كنفه ورعايته عليه الصلاة والسلام، فهو من القلائل الذين تمكنوا من وصف شمائل النبي ﷺ ومحاسنه الخِلْقية، فما كان الصحابة رضي الله عنهم يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إلى وجهه الشريف ويملؤوا أنظارهم من نور وجهه الكريم، بسبب هيبة النبوة التي كانت تملأ قلوبهم وتسيطر على نفوسهم. قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «... وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه»[2].

ولهذا التمسوا صفاته ﷺ ممَّن عاشوا في كنفه ورعايته صغاراً.

قال الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

---

(١) انظر الاستيعاب ٤/١٥٤٥.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم.

سألت خالي هند بن أبي هالة عن حِلْية رسول الله ﷺ، وكان وصّافاً، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلّق به، قال: كان رسول الله ﷺ، فَخْماً مُفخَّماً، يتلألأ وجهُه تلألُؤَ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع[1]، وأقصر من المشذَّب[2]، عظيم الهامة، رَجْلَ الشَّعر، إن انفرقت عقيقتُه فَرَقَ[3]، وإلا فلا، يُجاوز شعرُه شَحمة أذنه إذا هو وفَّر[4]، أزهرَ اللون، واسع الجبين، أزجَّ الحواجب[5]، سوابغَ من غير قَرَنَ[6]، بينهما عِرْقٌ يُدِرُّه[7] الغضب، أقنى العِرْنِين[8]، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأملْه أشَمَّ[9]، كثَّ اللحية[10]، أدعجَ[11]، سهل الخدَّين،

---

(١) القصير.
(٢) البائن الطول.
(٣) أي انفرق شعر رأسه من ذات نفسه.
(٤) أي إذا جعل شعر رأسه وفرة، ولا يسمى وفرة إلا إذا وصل شحمة الأذن.
(٥) دقيق الحواجب مع غزارة شعرها وتقوسها.
(٦) كوامل من دون اتصال.
(٧) يحركه ويهيجه.
(٨) طويل الأنف مع دِقَّة أرنبته وحدَب في وسطه.
(٩) طويل قصبة الأنف.
(١٠) أي غزير شعرها.
(١١) أي في العين، وهو شدة سواد الحدقة مع شدة بياضها.

ضليـع الفم[1]، أشْنَب[2]، مُفَلَّج الأسنـان[3]، دقيق المسرُبة[4].

كأن عنقه جيد دمية[5] في صفاء الفضة، معتدل الخَلْق بادناً[6]، متمـاسكاً، سـواءَ البطن والصـدر[7]، مُشِيحَ الصدر[8]، بعيدَ ما بين المنكبين، ضَخْمَ الكراديس[9]، أنورَ المتجرِّدِ، مَوْصولَ ما بين اللبَّة والسُّرَّةِ بشَعَرٍ يجري كـالخطِّ، عاريَ الثـديين ما سـوى ذلـك[10]، أَشْعَـرَ الذِّراعين والمَنكبين وأعالي الصدر، طويـلَ الزَّنْـدَيْن، رَحْبَ الراحةِ شَثْنَ الكفين والقدمينِ[11]، سائلَ الأطراف ـ أو قال: سائنَ الأطراف[12] ـ سَبْطَ العَصَبِ[13]، خُمْصَانَ

(١) أي واسعه، والعرب تمدح ذلك لأنه يدل على الفصاحة.
(٢) أبيض الأسنان.
(٣) مفرَّج الثنايا، وهي الأسنان التي في مقدمة الفم.
(٤) شعر الصدر النازل إلى السرة.
(٥) أي من عاج.
(٦) أي عظيم البدن، صلْب الجسم غير مسترخي اللحم.
(٧) لا يرتفع أحدهما على الآخر، فهمـا معتدلان.
(٨) أي لا انخفاض به ولا ارتفاع.
(٩) رؤوس العظام.
(١٠) أي ما سوى شعر المسرُبة.
(١١) واسع الكفين والقدمين قويَّهما.
(١٢) شك من الراوي، وهما بمعنى واحد، وهو: ممتد الأطراف.
(١٣) أي عظام ساعديه وساقيه فيها طول.

الأَخْمَصَين [1] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [2] ، إذا زال، زال تقلُّعاً [3] ، ويخطُو تَكَفُّؤاً، ويمشي هوناً ذَريعَ المِشْيَةِ كأنما يَنْحَطُّ من صَبَب [4] ، وإذا التفت التفت جميعاً، خافضَ الطَّرْفِ، نظرُه إلى الأرضِ أطولُ من نظره إلى السماء، جُلُّ [5] نظره الملاحظةُ يسوقُ أصحابَه [6] ، ويبدأ مَنْ لقيَهُ بالسلام.

علي بن أبي طالب

ضمه النبي ﷺ إلى بيته منذ نعومة أظفاره، فنشأ في كنف النبي ﷺ ورعايته، وأراد ﷺ بهذا أن يكافىء عمه أبا طالب على رعايته وكفالته ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب، والوفاءُ من الخصال الكريمة التي فُطر عليها ﷺ.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نَجيح، عن

---

(١) أي شديد تجافي أخمص القدم عن الأرض.
(٢) أي أملس القدمين لا نتوء فيهما.
(٣) أي رافعاً قدميه عن الأرض.
(٤) أي كأنه يمشي في أرض منحدرة.
(٥) معظم.
(٦) يقدِّمهم أمامه ويمشي خلفهم تواضعاً منه ﷺ.
انظر شرح الشفا للقاري ٢/٢٦٠ وروى الحديث الترمذي في كتاب الشمائل وقد ذكرت جزءاً منه.

مجاهد بن جبر، قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده له من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله. . .، فقال العباس: نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه(١).

وكان رضي الله عنه متأثراً بأخلاق النبي ﷺ، فلم يعظِّم الأصنام، ولم يسجد لها، وسارع إلى الإسلام وعمره عشر سنوات، وزوَّجه النبي ﷺ السيدة فاطمة رضي الله عنها في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر.

زيد بن حارثة

هو من هدايا السيدة خديجة رضي الله عنها للنبي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٢٩.

ﷺ، فقد رأت تعلق النبي ﷺ بزيد وحبه له، وكان في مِلكها، فوهبته له ﷺ، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبْق إلى الإسلام[1].

وأصل زيد من عرب الشمال، سُبي من أمه وهو صغير، وكانت قد خرجت به لتزيره أخواله من طيىء، وبيع كما يباع الرقيق، اشتراه حكيم بن حزام، ابن أخ السيدة خديجة، ووهبه لعمته رضي الله عنها.

وقد حزن عليه أبوه حارثة حزناً شديداً، وبحث عنه حتى وجده عند رسول الله ﷺ، وذلك قبل البعثة، فخيره ﷺ بين أن يبقى عنده أو يذهب إلى أهله مع أبيه، فاختار البقاء مع رسول الله ﷺ، فتبناه ﷺ، فكان يدعى: زيد ابن محمد، حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿ ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله، فإن لم تعلموا آباءَهم فإخوانكم في الدين ومواليكم... ﴾ الآية[2] وعاد ﷺ إلى تسميته زيد بن حارثة، وكان رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، وهم: السيدة خديجة، وأبوبكر الصديق، وعلي، وزيد رضي الله عنهم.

زوَّجه النبي ﷺ من حاضنته أم أيمن، فولدت له

(١) الإصابة ٧/٦٠٣.
(٢) الأحزاب ٥.

أسامة، وعينه أميراً على جيش مؤتة فاستشهد رضي الله عنه[1].

أم أيـمـن

بركة الحبشية، حاضنة النبي ﷺ، ورثها عن أبيه، حضنت النبي ﷺ بعد موت أمه، وهو في السادسة من عمره، وكان ﷺ يقول: «أم أيمن أمي بعد أمي». وكان أبو بكر وعمر يزورانها في منزلها كما كان ﷺ يزورها[2].

جاء في الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك ألا تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيَّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[3].

كل هؤلاء ضمهم بيت النبوة، البيت الذي كانت فيه خديجة السيدة الأولى فيه، رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) انظر تفصيل قصة زيد في: النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.
(٢) انظر الاستيعاب ٤/١٧٩٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

الفَصل الثالث

تَثْبِيتٌ وَتَصْدِيق

الفصل الثالث
تثبيت وتصديق

تباشير النبوة

ومرت الأعوام تلو الأعوام على أكرم زوجين، نعما فيها بأسعد الأوقات، وأهنأ الساعات، ولما اقترب النبي ﷺ من الأربعين من عمره الشريف، بدأت تباشير النبوة وإرهاصاتها تلوح في أفق حياته ﷺ.

روى ابن سعد عن بَرَّة بنت أبي تِجْرَاة قالت: إن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً[1]، ويُفضي إلى الشِّعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً[2].

---

(١) لأنهم كانوا لم يتخذوا الحمامات والكُنُف في البيوت لقضاء الحاجة حينئذ.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/٣٠٦ عن طبقات ابن سعد، وروى مثله ابن إسحاق من طريق آخر كما في السيرة لابن هشام ١/٢١٦.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح، عن سمرة ابن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً كان يسلّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[١].

ولا بدَّ أنه ﷺ ذكر ذلك للسيدة خديجة رضي الله عنها، فمثل هذه الحوادث أمور عجيبة خارقة للعادة، تثير في نفس من تعرض له شيئاً من القلق والخوف، ويصبح محتاجاً إلى شخص يثق به، يبثه ما يجده، ويحدثه بما يساوره من خوف وقلق، والسيدة خديجة رضي الله عنها أقرب الناس إلى النبي ﷺ روحاً وجسداً، فهي أهله وسكنه وأنس روحه ونفسه رضي الله عنها، وقد ذكرت بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قد حدثها بما يعرض له.

روى ابن سعد عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «يا خديجة إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً»، قالت: إن الله لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم[٢].

---

(١) أحمد ومسلم.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/٣٠٧.

هكذا تثبته رضي الله عنها بما آتاها ربها سبحانه من رجحان في عقلها وسداد في تفكيرها، فهي على ثقة من حكمة الله تعالى، ومن كان مثل رسول الله ﷺ بأخلاقه العالية الكريمة لا يختار له سبحانه إلا كل خير وكرامة.

الرؤيا الصادقة

ثم ابتدأ الوحي ينزل على النبي ﷺ بالرؤيا الصادقة، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (أول ما بُدىء رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة[١]، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) الحديث.

وكلما رأى ﷺ رؤيا قصَّها على السيدة خديجة رضي الله عنها فتثبته وتبشره. رأى عليه الصلاة والسلام مرة في منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبة، وأُدخل فيها سُلَّمٌ من فضة، ثم نزل إليه رجلان، فأراد أن يستغيث فمُنع من الكلام، فقعد أحدهما إليه والآخر إلى جنبه، فأدخل أحدهما يده في جنبه، فنزع ضلعين منه، فأدخل يده في جوفه، ورسول الله ﷺ يجد برْدَها، فأخرج قلبه فوضعه على كفه، فقال لصاحبه: نعم القلب قلب رجل

(١) هكذا لفظ رواية البخاري في أول ابتداء نزول الوحي، وذكر رواية ثانية في التفسير بلفظ (الصادقة).

صالح، فطهّر قلبه وغسله، ثم أدخل القلب مكانه، ورد الضلعين، ثم ارتفعا ورفعا سلمهما فإذا السقف كما هو.

فذكر ذلك لخديجة فقالت له: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، هذا خير فأبشر(١).

والجدير بالذكر أن شق صدره الشريف عليه الصلاة والسلام وغسْل قلبه ثبت بالأحاديث الصحيحة، أكثر من مرة في حياته عليه الصلاة والسلام.

في غار حراء(٢)

استمرت مرحلة الرؤيا الصادقة ستة أشهر، وكانت رحمة من الله تعالى ولطفاً بنبيه ﷺ، لأن فيها توطئة لنزول الوحي عليه ﷺ يقظةً. وحبب الله تعالى إليه في أثناء هذه المرحلة الخلوة بنفسه والعزلة عن الناس، فكان ﷺ يخرج إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وتزوده السيدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من طعام وشراب، فإذا نفد زاده رجع ﷺ إليها.

قالت عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي:

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٣١٢ عن الخصائص الكبرى.

(٢) يقع في أعلى جبل مشرف على بيت الله الحرام، على مسافة ثلاثة أميال منه على يسار الذاهب إلى منى.

(وحُبِّبَ إليه الخَلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود لمثلها. . .) الحديث.

واحتملت رضي الله عنها بُعْد النبي ﷺ عنها، وصبرت على مفارقته لها ما دام ذلك يعجبه، والمعروف من أحوال المرأة أنها تغضب إذا ما ابتعد زوجها عنها، وتدركها الغَيْرة عليه، وتخشى أن يكون إعراضه عنها بسبب كره لها، أو ميله إلى غيرها، ولكنها رضي الله عنها خالفت جميع النساء في هذا الشأن، فجوهرها الصافي يختلف عن جوهرهن رضي الله تعالى عنها.

كانت تحب كل ما يحبه رسول الله ﷺ، وما دام يحب العزلة والخلوة بنفسه، فليكن له ما يحب، كانت فقط تقلق عليه وتخشى أن يصيبه مكروه، وإذا ما تأخر في العودة إليها ترسل غلمانها وخدمها في طلبه والبحث عنه ﷺ، وقد خرجت معه في بعض المرات إلى غار حراء، وصحبته هناك في عزلته وخلوته، جاء في بعض الروايات أنه ﷺ خرج في بعض المرات إلى غار حراء ومعه أهله[1].

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٢/٣١٢، والسيرة لابن هشام ١/٢١٩.

وكلما دنا الموعد الذي قدَّره الحكيم العليم لبدء نزول القرآن الكريم، زادت الهواتف واشتد النور، وكلما سمع ﷺ شيئاً جديداً لجأ إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فتثبته وتبشره، وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى عندما قدَّر أن تكون السيدة خديجة زوجة للنبي ﷺ في هذه المرحلة من حياته ﷺ لتكون له عوناً وعضداً ورداءاً ومثبتاً، وهو يستعد لاستقبال وحي الله تعالى، وحمل أعظم أمانة وأكمل رسالة.

واستمر ﷺ يرى الضوء ويسمع الصوت، حتى جاءه مرة وعرّفه جبريل بنفسه دون أن يراه، وقال له: يا محمد أنا جبريل، وعاد ﷺ إلى خديجة، وقال: والله خشيت أن يكون هذا أمراً، فقالت له رضي الله عنها لكي تثبته وتزيل قلقه واضطرابه: معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

وفي ليلة من الليالي أسمعه جبريل صوته مسلِّماً: السلام عليكم، وعاد ﷺ إلى السيدة خديجة مسرعاً، فقالت: ما شأنك؟ فأخبرها، فقالت: أبشر فإن السلام خير(١).

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٣١٣.

لقاء الأمينين

ومرت شهور الرؤيا الصادقة الستة، وجاء شهر رمضان المبارك، وصعد النبي ﷺ إلى غار حراء يتعبد فيه، وزودته السيدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من الطعام والماء، وفي ليلة من ليالي رمضان، بينما كان النبي ﷺ جالساً في غار حراء، مستغرقاً في تأملاته وأفكاره، إذا بالنور الذي كان يراه يظهر أمامه في أفق السماء من جهة البيت العتيق، ثم يدنو منه، وكلما اقترب منه ازداد قوة وسطوعاً. ثم بدا له في وسط النور أمين وحي الله تعالى جبريل عليه السلام، ظهر جبريل للنبي ﷺ في هيئة إنسان، وجاءه يحمل نمطاً من ديباج، وخيَّم على الكون هدوء عجيب، وكأنه ينصت إلى كلمات الله تعالى، الجبل السامق بهامته العالية وصخوره وذرات ترابه وحبات رماله، والنباتات الصغيرة والشجيرات التي تطرز سفوحه، كلها أنصتت وأرهفت سمعها، حتى النجوم في قبة السماء ازدادت تألقاً وسطوعاً، كأنها تدنو من جبل النور، الذي لفه النور من كل جانب، وحرست السماوات، ومنعت الشياطين ومردة الجان من الاقتراب من السماء الدنيا.

ها هو ذا جبريل عليه السلام يقف في غار حراء، أمام

محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي ﷺ، يلقي إليه الرسالة الإلهية الأولى، التي يفرق فيها كل أمر حكيم: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يُفْرَقُ كل أمر حكيم. أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم﴾[1]، ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر﴾[2]، ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان﴾ الآية[3].

وتم اللقاء والاتصال بين الأمينين، أمين الوحي السماوي جبريل عليه السلام، وأمين الوحي الأرضي سيدنا محمد ﷺ، وضم الأمين السماوي الأمين الأرضي إليه ليتم الاتصال ويسري النور، ضمَّه إليه ضمة شديدة حتى التصق الجسد الأرضي بالجسد النوراني السماوي، ثم ألقى إليه الكلمة: ﴿اقرأ﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي: (فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، قال:

---

(١) الدخان ٣ ـ ٦.

(٢) القدر ١ ـ ٣.

(٣) البقرة ١٨٥.

فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم﴾[1]).

العودة إلى خديجة

أدّى جبريل عليه السلام الرسالة إلى النبي ﷺ ثم تركه وانصرف عنه، وبادر ﷺ بعد أن انصرف جبريل إلى النزول والعودة إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، وما لقيه حجر ولا شجر وهو في الطريق، إلا قال له مسلّماً ومهنئاً بالنبوة والرسالة: السلام عليك يا رسول الله.

وكان ﷺ يرتجف من هول ما حدث له، عاد إليها ﷺ وهو يقول: «زمِّلوني، زمِّلوني»، فزملته رضي الله عنها، وأحاطته برعايتها وعطفها وحنانها، ولم تبادر إلى سؤاله عما حدث، وهذا من ذوقها رضي الله عنها وحسن أدبها وصواب تفكيرها، بل انتظرت حتى هدأت نفسه الشريفة، وذهب عنه ما كان يجد من اضطراب، عندئذ

---

(١) العلق ١ ـ ٣.

سألته، فقص عليها ﷺ ما رأى وأخبرها بما سمع، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت له رضي الله عنها بكل ما أوتيت من ثقة وحزم: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً. وفي رواية ثانية للبخاري: كلا، أبشر...

لك الله يا أم المؤمنين، ما أعقلك وأحزمك! وما أصدق فراستك، وما أعظم ثقتك بربك سبحانه! من في النساء من تقول مثل كلمتك هذه وتقف من زوجها مثل موقفك الكريم هذا؟ بل من في الرجال من يقول مثل كلمتك هذه؟ رضي الله عنك وأرضاك، وجزاك الله خير الجزاء عن نبيه ودعوته ورسالته وأمته إلى يوم الدين.

قال ابن حجر رحمه الله: صدَّقته ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها، ووفور عقلها، وصحة عزمها(١).

وبعد أن أقسمت رضي الله تعالى عنها بالله مؤكدة ثقتها تابعت قائلة، وهي تبين الدلائل على صحة ما أقسمت عليه: (إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ) أي تساعد العاجز الضعيف، (وتكسب المعدوم) أي تعطي المحروم، وتؤثره على نفسك، (وتقري الضيف، وتعين

---

(١) فتح الباري ٧/١٣٤.

على نوائب الحق)، وفي رواية أخرى للبخاري قالت رضي الله عنها أيضاً: (وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة)، وتلك الخصال التي جمعتها للنبي ﷺ معدن الأخلاق الكريمة وأصولها، ومن كمَّله الله تعالى بهذا الكمال الخُلقي الرفيع، وجمع له كل هذه الخصال، حاشاه أن يُخزيه الله تعالى، ويلحق به ما يشينه.

ورقة بن نوفل

ولم تكتف رضي الله عنها بهذا، بل ذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، الذي سبق أن حدثته عن النبي ﷺ قبل زواجها منه، وأخبرها ورقة أنه سيكون من هذه الأمة نبي حان أوان ظهوره، كما مر معنا.

وتضيف بعض الروايات أن النبي ﷺ كان قد ذهب إلى ورقة مع صاحبه أبي بكر الصديق، قبل هذه المرة أيضاً، ففيها أن النبي ﷺ قال للسيدة خديجة رضي الله عنها: إني إذا خلوت وحدي أرى ضوءاً وأسمع نداءً: يا محمد أنا جبريل، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل هذا بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه لها، وقالت: اذهب

مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فإنه رجل يقرأ الكتب، فيذكر له ما يسمع، فانطلقا، فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد أنا جبريل، فأنطلق هارباً، فقال ورقة: سُبّوح، سُبّوح، وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله تعالى على وحيه بينه وبين رسله، لا تفعل إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني[١].

وهذا يدل على أن ورقة كان على علم بأمر النبي ﷺ وما يحدث له، لكنه في هذه المرة عندما أخبره النبي ﷺ بما كان بينه وبين جبريل في غار حراء، تأكد من صحة نبوته عليه الصلاة والسلام وجزم بها، ففي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ الذي ذكرت جزءاً منه: فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية[٢] وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٣١٣.

(٢) كان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها، يسألان عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية، فتنصر، وكان لقي من الرهبان من على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به.

وأما زيد بن عمرو فتوقف، ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان. انظر فتح الباري ١/٢٥.

الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك[(١)]، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: «أوَ مُخرجيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزّراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[(٢)].

وهكذا تأكَّد ورقة هذه المرة من صحة نبوة النبي ﷺ، وقال جازماً بها: (هذا الناموس الذي نـزل الله على موسى).

والناموس: صـاحب السر، ووصفـه بالنـزول على موسى، للاتفاق بين أهل الكتاب على ذلك.

وقول عائشة: (ثم لم ينشب ورقة أن توفي) أي لم يطل عمره بعد ذلك، وجاء في بعض الأحاديث الشريفة

---

(١) قالت ذلك على سبيل التوقير لسنه، ويدل قولها هذا على أن ورقة كان عنده علم سابق بحال النبي ﷺ، مما يؤكد الروايات السابقة عن مجيء النبي ﷺ إليه قبل هذه المرة.

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري.

أنه عليه الصلاة والسلام رآه في الجنة وعليه ثياب بيض.

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها أن خديجة سألت رسول الله ﷺ عن ورقة، فقال: «قد رأيته، فرأيت عليه ثياباً بيضاً، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض».

وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سُئل عن ورقة، فقال: «أبصرته في بُطنان الجنة، وعليه السندس».

وروى البزار وابن عساكر بإسناد جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا ورقة، فإني رأيت له جنة أو جنتين». وقد عده كثير من العلماء في الصحابة.

وجاء في بعض الروايات أنه عاش إلى أن بدأ الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى، روى الزبير بن بكار بسند جيد عن عروة بن الزبير قال: كان بلال لجارية من بني جمح، وكانوا يعذبونه برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فيقول: أحد، أحد، فمر به ورقة على تلك الحال، فقال: أحد، أحد، والله لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً[1].

---

(١) لأتَبركن به.

الاختبار

وتتابع مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، لكي يألفه النبي ﷺ ويستأنس به، وفكرت السيدة رضي الله عنها بعقلها الرشيد ورأيها السديد أن تختبر جبريل عليه السلام لتتأكد من حقيقته، فقالت للنبي ﷺ:

(يا ابن عم: أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: «نعم»، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل، فقال رسول الله ﷺ: «يا خديجة هذا جبريل قد جاءني»، فقالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، فحسرت فألقت خمارها، ورسول الله ﷺ في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه مَلَك، ما هذا بشيطان)[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ١/٣١٤، وسيرة ابن هشام ١/٢٢٣.

وما فعلته السيدة خديجة رضي الله عنها يدل على شدة ذكائها وبعد نظرها، وحرصها على تسكين النبي ﷺ وتبشيره وتثبيته.

الظهور الكامل

وبعد أن نزل جبريل بأول آيات القرآن نزولاً كما مر معنا، ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق... ﴾ فتر نزول القرآن الكريم لبعض الوقت، كما جاء في حديث السيدة عائشة: (ثم فتر الوحي)، ثم أنزل الله على النبي ﷺ قوله الكريم: ﴿ يا أيها المدثِّر. قُمْ فأنذر. وربَّك فكبِّر ﴾[1] بعد أن ظهر له جبريل بهيئته الملكية.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني، دثِّروني، وصُبّوا عليَّ ماءً بارداً»، قال: «فدثروني وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فنزلت: ﴿ يا أيها المدثِّر. قم فأنذر. وربك فكبر ﴾».

(١) المدثر ١ ـ ٣.

وفي رواية ثانية: قال ﷺ: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فزملوني، فأنزل الله: ﴿ يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبِّر. وثيابك فطهِّر. والرُّجْزَ فاهجر﴾ ثم حمي الوحي وتتابع»[1].

وبهذا الظهور الكامل من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ظهرت للنبي ﷺ طبيعة المهمة المكلف بها، وعرف ﷺ مهمته، وتمت له النبوة، واستبانت معالم الرسالة.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا السياق يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي كان بحراء» وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق... ﴾ ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٦٧.

السبَّاقة إلى الإسلام

وبادرت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها إلى الإيمان برسالة النبي ﷺ والتصديق بنبوته، فهي سبَّاقة الخلق إلى الإيمان والإسلام، رضي الله تعالى عنها وأرضاها.

اتفق العلماء على هذه الحقيقة، قال ابن عبد البَر: هي أول من آمن بالله عز وجل ورسوله ﷺ، وهذا قول قتادة، والزهري، وعبد الله بن محمد بن عقيل، وابن إسحاق، وجماعة، قالوا: خديجة أول من آمن بالله عز وجل من الرجال والنساء، ولم يستثنوا أحداً.

وذكر ابن أبي خيثمة في أول كتاب المكيين قال: وكان أول من آمن بالله ورسوله فيما قال الزهري وغيره... خديجة بنت خويلد، ثم روى بسنده أنه ﷺ صلَّى يوم الاثنين، وصلَّت خديجة آخر يوم الاثنين، وكذا يقول ابن عباس(١).

وقال أبو الحسن ابن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة.

وقال محمد بن كعب القرظي: أول من أسلم من هذه

(١) انظر الاستيعاب ٤/١٨٢٠.

الأمة برسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها.

وحكى الإمام الثعلبي اتفاق العلماء على ذلك، وإنما اختلافهم في أول من أسلم بعدها.

وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة المحققين.

وقال الواقدي: أجمع أصحابنا أن أول المسلمين استجاب لرسول الله ﷺ خديجة[1].

قال ابن هشام: وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق بما جاء به، فخفَّف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى[2].

ومن الطبيعي أن تكون السيدة خديجة رضي الله عنها أول من أسلم، إذ كانت رضي الله عنها ترجو ذلك وتتوقعه للنبي ﷺ، بسبب كثرة ما رأت من تباشير النبوة وإرهاصاتها، كما مر معنا.

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ١/٤٠٢.

(٢) السيرةالنبوية ٢/٢٢٤.

قال ابنِ حجر رحمه الله: ومن مزايا خديجة أنها ما زالت تعظِّم النبي ﷺ وتصدِّق حديثه قبل البعثة وبعدها[1].

وبعد أن دخلت في دين الإسلام علمها النبي ﷺ الوضوء والصلاة كما علمه جبريل عليه السلام، قال ابن هشام: جاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته[2].

وهكذا أصبحت خديجة بنت خويلد القرشية الزوجة الأولى للنبي ﷺ، وتبوأت مقام أم المؤمنين.

---

(١) الإصابة ٧/٦٠٣.

(٢) السيرة النبوية ١/٢٢٧.

الفصل الرابع

مؤازرة ومصابرة

الفَصْلُ الرَّابِعُ
مؤَازَرَة وَمُصَابَرَة

الدور الجديد

وضمت رضي الله عنها إلى دورها السابق الذي قامت به في تثبيت النبي ﷺ وتبشيره، دوراً جديداً في مؤازرته ومعاونته عليه الصلاة والسلام في تبليغ الدعوة، ومواجهة عناد المشركين وإعراضهم وعدوانهم.

ومرَّ معنا من قريب قول ابن هشام: ووازرته على أمره... فخفَّف الله بذلك عن نبيه ﷺ... إلخ.

وقفت رضي الله عنها في هذه المرحلة بجانبه ﷺ تشد أزره وتواسيه وتقويه، وتأسو جراح نفسه، وما أكثر ما لقي عليه الصلاة والسلام من عناد المشركين وأذاهم، وصبرت رضي الله عنها وهي بجانبه عليه الصلاة والسلام وصابرت، وساعدته في كل ما تستطيع، وبذلت نفسها ومالها في سبيل تبليغ الدعوة إلى الناس.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله ورسوله وصدَّق محمداً ﷺ فيما جاء به عن ربه وآزره على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له إلا فرج الله عنه بها، تثبته وتصدقه وتخفف عنه، وتهوّن عليه ما يلقى من قومه(١).

كانت رضي الله عنها وزيرة صدق للنبي ﷺ على الإسلام، وكان يسكن إليها(٢).

رقية وأم كلثوم

كانت رضي الله عنها تعلم وعورة الطريق وصعوبة السير فيه، منذ أن سمعت ابن عمها ورقة بن نوفل يقول للنبي ﷺ: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت بـه إلا عودي)، ومع ذلك كانت أول من سار على هذا الطريق متحدية كل ما فيه من عقبات وصعاب، سارت رضي الله عنها بجانب النبي ﷺ على الطريق، وتعرضت لكل ما تعرض له عليه الصلاة والسلام من الأذى.

أوذيت رضي الله عنها بابنتيها: رقية وأم كلثوم، عندما آذَوا رسول الله ﷺ بهما.

---

(١) الاستيعاب ٢/١٨٢٠.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/٥٧١.

كان رسول الله ﷺ قد زوج السيدة رقية عتبة بن أبي لهب، والسيدة أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب، ولما أراد المشركون أن يؤذوه طلبوا من عتبة وعتيبة أن يطلقا بنتي رسول الله ﷺ فطلقاهما.

وفي رواية ثانية أن رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب السيدة رقية، فمشى إليه بعض المشركين، فقالوا له: طلِّق بنت محمد ونحن ننكحك أيَّ امرأة من قريش شئت، فقال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص، أو بنت سعيد بن العاص، فارقتها، فزوجوه بنت سعيد بن العاص، وفارقها. ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها، وخلف عليها عثمان بن عفان بعده[1].

ولا شك أن الأم تتألم وتحزن بسبب طلاق بنتها، ولا بدَّ أن السيدة خديجة رضي الله عنها قد تألمت لما أصاب ابنتيها، ثم تألمت رضي الله عنها أيضاً عند مفارقة السيدة رقية لها، وسفرها مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنهما إلى الحبشة، فراراً بدينهما، وكانا أول مهاجِرَيْن خرجا إلى الحبشة رضي الله عنهما. وجاء في الحديث

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٤.

الشريف عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط»[1].

والجدير بالذكر أنَّ عثمان رجع مع زوجته السيدة رقية إلى مكة المكرمة، ثم هاجرا معاً بعد ذلك إلى المدينة المنورة، ومرضت في أثناء غزوة بدر، وخلّف النبي ﷺ عثمان في المدينة من أجل زوجته المريضة، وقال له: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً»[2]، وتوفيت السيدة رقية في مرضها هذا، فزوجه ﷺ أختها السيدة أم كلثوم، وتوفيت أيضاً في شعبان سنة تسع، ولهذا لقب عثمان بن عفان بذي النورين رضي الله عنه، وكانت السيدة خديجة قد توفيت، فلم تشارك رسول الله ﷺ حزنه على وفاة ابنتيه منها رضي الله عنها.

المقاطعة

كانت محنة النبي ﷺ والمسلمين في سنوات المقاطعة الظالمة الثلاث أقسى المحن التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة قبل الهجرة، وكان للسيدة خديجة رضي الله عنها دور كبير في تخفيف المحنة، وفي مواساة النبي ﷺ والمسلمين في أثنائها.

---

(١) أخرجه البيهقي والطبراني.

(٢) صحيح البخاري.

وخبر هذه المقاطعة كما رواه كتَّاب السيرة النبوية كالآتي:

إن قريشاً لما رأت أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الحبشة، قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر بن الخطاب قد أسلم، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة عم النبي ﷺ، وجعل الإسلام يفشو بين القبائل، فأجمعوا واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا. فقالوا لقومه: خذوا منا ديةً مضاعفة، وليقتله رجل من غير قريش، ويريحنا وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو المطلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، أجمعوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه، ألَّا يُنكحوهم، ولا يَنكِحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

ثم علقوا صحيفة كتاب المقاطعة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وقطعوا عن بني هاشم وبني

المطلب الأسواق، ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم.

وانحاز أبو طالب إلى شِعْبٍ له في مكة، وانحاز معه بنو هاشم وبنو المطلب إلا أخاه أبا لهب، وكان أبو طالب طول مدتهم في الشعب يأمر النبي ﷺ ألا ينام في فراشه خوفاً عليه، ويأمر أحد أبنائه أن ينام على فراش رسول الله ﷺ[1].

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات عانى فيها المسلمون من قلة المؤن والطعام، حتى كان ﷺ عندما يقوم من الليل إلى الصلاة يسمع بكاء الأطفال من الجوع، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كنا قوماً يُصيبنا ظَلَفُ العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومَرَنَّا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقعة شيء تحت بولي، فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم أستفّها، وشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثاً[2].

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٢/٥٠٤، والسيرة النبوية لابن هشام.
(٢) حياة الصحابة ١/٣١٢.

ووقفت السيدة خديجة رضي الله عنها بجانب النبي ﷺ، وانضمت إليه في شِعْب أبي طالب، وتحملت معه ما تحمل من الجهد والعناء والجوع، وبذلت رضي الله عنها مالها لتؤمِّن ما تستطيع من الطعام للمسلمين في خلال سنوات المقاطعة، واستعانت لهذا الأمر بابن أخيها حكيم بن حزام رضي الله عنه، وكان حينئذ لا يزال على شركه لم يسلم بعد(١).

فكان يشتري الطعام، ويرسله إلى عمته السيدة خديجة ليلاً، ولقيه في إحدى المرات أبو جهل، ومع حكيم غلام يحمل قمحاً، يريد عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشِّعب،

---

(١) كان تاجراً كريماً، ولد في الكعبة قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وعاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام. أسلم بعد فتح مكة، وكان إذا حج في الإسلام يهدي مائة بدنة وألف شاة ويعتق مائة عبد، كرّمه النبي ﷺ عندما فتح مكة فأمر المنادي أن يقول: «ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن»، وأعطاه ﷺ من غنائم حنين وقال له: «إن هذا المال خَضِرةٌ حُلْوَةٌ، فمن أخذه بطيب نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»، فقال حكيم: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً أبداً، فلم يقبل عطاءً حتى مات رضي الله عنه. حياة الصحابة ٢/٢٥١، والحديث في صحيح مسلم.

فتعلَّق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

فجاء أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لَحْي بعير فضربه به، فشجَّه، ووطئه وطئاً شديداً[١].

ومرّت سنوات المقاطعة الظالمة، وهلك فيها من هلك من أطفال المسلمين، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ممن ولد في الشِّعب: حُصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة، حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة، فما يُبايَع حتى يرجع، حتى هلك من هلك[٢].

وسلَّط الله سبحانه الأَرَضة على الصحيفة الظالمة، فأكلت أو لحست ما في الصحيفة من عهد وميثاق، وقام بعض رجالات قريش من المشركين فسعَوا في نقض الصحيفة، بعد أن رأوا شدة ما يعاني المحصورون في

(١) السيرة النبوية ٢/٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/٥٠٣.

شِعْب أبي طالب، وكان ﷺ قد أخبر عمه أبا طالب بما فعلت الأَرَضَةُ بالصحيفة، وأخبر أبو طالب وجوه المشركين بذلك، وطالبهم بإحضار الصحيفة، ولما أحضروها ونظروا فيها، وجدوها كما أخبر رسول الله ﷺ، وقد ساعد هذا على نجاح المساعي لإنهاء المقاطعة والخروج من الشعب.

عام الحزن

وبعد انتهاء أعوام المقاطعة جاء عام الأحزان.

وفاة أبي طالب

توفي أبو طالب عم النبي ﷺ بعد الخروج من الشعب، وحزن ﷺ على موته كافراً، وكم تمنى ﷺ لعمه الهداية، وألَحَّ عليه وهو في سياقة الموت لكي يسلم ويقول: لا إلّه إلا الله.

روى الشيخان البخاري ومسلم عن المسيّب بن حَزْن رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إلّه إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن المغيرة: يا أبا طالب أترغب عن مِلَّة عبد المطلب؟ فلم

يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إلّـه إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قُربَى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾(١)، ونزل في أبي طالب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾(٢).

ويدل قوله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك» على أن شدة الحزن الذي أصابه عليه الصلاة والسلام كان أولاً بسبب موت عمه أبي طالب على الكفر، وحزن ﷺ أيضاً على موت أبي طالب لأنه فقد نصرته ووقوفه في وجوه المشركين دونه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام: كان له عضداً وحِرْزاً في أمره، ومَنَعةً وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجَره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع في حياة أبي

(١) التوبة ١١٣.
(٢) القصص ٥٦.

طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه التراب وقال ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[1].

وفاة خديجة رضي الله عنها

ولا بد أن السيدة خديجة رضي الله عنها واست رسول الله ﷺ وحاولت أن تخفف من حزنه على عمه أبي طالب، كما هو حالها وشأنها معه ﷺ في كل ما يعرض له، ولكن مواساتها انقطعت بوفاتها هي أيضاً رضي الله عنها، إذ وافاها أجلها بعد موت أبي طالب بزمن قصير.

روى الحاكم أن موتها بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام.

وروى ابن الجوزي عن حكيم بن حزام وثعلَبة بن صُعَيْر أنه كان بين وفاة أبي طالب، ووفاة خديجة، شهران وخمسة أيام.

توفيت رضي الله عنها لعشر خَلَون من رمضان، وهي بنت خمس وستين سنة، وعن حكيم بن حزام أنها توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بني هاشم من الشعب،

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٦.

ودفنت بالحَجُون، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها ولم تكن الصلاة على الجنازة شرعت[1].

وتتابعت الأحزان على رسول الله ﷺ بوفاتها رضي الله عنها، وعُرف العام الذي توفيت فيه بعام الحزن، وأصبح ﷺ إذا عاد إلى البيت مهموماً مكروباً من كثرة ما يلقى من أذى المشركين وكيدهم، لا يرى وجه خديجة وهي تستقبله بإشراقة وجهها وصفائه وابتسامته، فقد ﷺ ابتسامة الثقة والأمل التي كانت تستقبله بها، فقد ﷺ كلمات التثبيت والتبشير التي كانت تثبته بها رضي الله عنها.

ابتسامة خديجة

ترى هل كانت السيدة خديجة تبتسم للنبي ﷺ، عندما كانت تودعه وتجود بروحها، لقد عودته رضي الله عنها على ابتسامتها، فهل كانت تبتسم لكي تواسيه بنفسها عن نفسها رضي الله عنها؟. أم كانت تبتسم لأنها رأت بيتها في الجنة[2]، البيت الذي بُشرت به من قبل، عندما كانت تصعد إلى حراء، وهي تحمل الطعام والماء إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٥٧١.

(٢) دلت الآيات والأحاديث الشريفة أن المؤمن عند الاحتضار يُبشر بالجنة، ويكشف له حتى يرى مقعده فيها.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه:

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فُضيل، عن عُمارة، عن أبي زُرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب.

قوله (أتى جبريل) وفي رواية سعيد بن كثير عند الطبراني أن ذلك كان وهو بحراء، وزاد الطبراني في روايته هذه: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

وللنسائي من حديث أنس قال: قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله يُقرىء خديجة السلام، فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

ويدل قولها رضي الله عنها: (إن الله هو السلام) على فقهها وفهمها وحسن أدبها مع الله تعالى، فالله سبحانه لا يُرَدُّ عليه السلام كما يُرَدُّ على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسمائه تعالى، وهو أيضاً دعاء بالسلامة، وكلاهما

لا يصلح أن يُردَّ به على الله، فكأنها قالت: كيف أقول: عليه السلام، والسلام اسمه، ومنه يُطلب، ومنه يحصَّل. فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه، فأثنت عليه سبحانه، ثم غايرت بين ما يليق بالله تعالى، وما يليق بغيره، فقالت: وعلى جبريل السلام، ثم قالت: وعليك السلام. والذي يظهر أن جبريل كان حاضراً عند جوابها، فردَّت عليه، وعلى النبي ﷺ(١).

وذكرت بعض الروايات أن السيدة خديجة رضي الله عنها رأت جبريل، وهو في صورة رجل، أخرج ابن السُّني بسنده عن خديجة أنها خرجت تلتمس رسول الله ﷺ بأعلى مكة، ومعها غذاؤه، فلقيها جبريل في صورة رجل، فسألها عن النبي ﷺ، فهابته، ولما ذكرت ذلك للنبي ﷺ، قال لها: هو جبريل، وقد أمرني أن أقرأ عليك السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب(٢).

والمراد من القصب: قصب اللؤلؤ، وهو عند الطبراني في الأوسط من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى «يعني قصب اللؤلؤ».

---

(١) انظر فتح الباري ٧/١٣٩.
(٢) الإصابة ٧/٦٠٤.

وعنده في الكبير من حديث أبي هريرة «بيت من لؤلؤة مجوفة».

وعنده في الأوسط من حديث فاطمة قالت: قلت يا رسول الله أين أمي خديجة؟ قال: «في بيت من قصب»، قلت: أمن هذا القصب؟ قال: «لا، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت»[1].

---

(١) فتح الباري ١٣٨/٧.

الفصل الخامس

ذِكْرى خَدِيجَة

الفَصلُ الخامِسُ
ذِكْرى خَدِيجَة

غَيْـرة عائشــة

رَحلَت السيدة خديجة رضي الله عنها عن الدنيا، وتركت رسول الله ﷺ وهو في ذروة المعاناة، لما يلقاه من أذى المشركين وإعـراضهم وكيـدهم، وبقيت ذكـرى خديجة في قلبه الشريف ﷺ حية قوية، فلم تبارحه حتى آخر أيام حياته ﷺ.

لم تشغله الأعمال الجليلة الكبيرة التي تملأ حياته عن تذكر زوجته السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها: الدعوة إلى الله تعالى، وتلقي الوحي والقيام بتبليغه للناس، العرض على قبائل العرب في المواسـم والأسواق، الهجـرة إلى المدينـة، وتأسيس الدولة المسلمة وبناء المجتمع المسلم الجديد، الجهاد في سبيل الله والخروج إلى الغزوات، وإرسال السرايا

وبعث البعوث، وإرسال الرسائل والكتب إلى الأمراء والملوك في أطراف الأرض، واستقبال الوفود، وغير ذلك من الأعمال الجليلة.

وبقيت مع كل هذه الأعمال ذكرى خديجة رضي الله عنها عالقة في قلبه الشريف، لا تفارقه، كأنها أصبحت جزءاً منه، لا تكاد تنفصل عنه.

ومع أنه عليه الصلاة والسلام تزوج بعدها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، واجتمع عنده في وقت واحد تسع منهن، وكنَّ رضي الله عنهن في غاية المحبة للنبي ﷺ، يتنافسن في محبته وخدمته، ويتسابقن إلى رضاه وطاعته، لم ينسَ ﷺ السيدة الأولى خديجة، وكان يذكرها حتى أمام أحب نسائه إليه ﷺ، أمام السيدة عائشة رضي الله عنها التي كان يقال عنها: حبيبة رسول الله ﷺ[1]، وكانت رضي الله عنها تغار من كثرة ذِكْره عليه الصلاة والسلام لخديجة رضي الله تعالى عنهما.

ومن المعلوم أن غَيْرة المرأة تنبع من تصوّر وتخيّل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة.

(١) انظر كتاب المؤلف: عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام.

ولنستمع إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي تعترف بغيرتها من السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وتقول: (ما غِرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كـان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد)(١).

وقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (كأن لم يكن في الدنيا غيرها) حقيقة، فقد عاش ﷺ مع السيدة خديجة رضي الله عنها أنضر سنوات عمره الشـريف، خمساً وعشرين سنة أمضاها مع السيدة خديجة وحدها، ولم يكن فـي الدنيا معه إلا خديجة، ثم عاش ﷺ بعد موتها مع ذكراها، عاش معها بعد موتها رضي الله عنها بقلبه ووجدانه ومشاعره حتى توفي ﷺ.

قال ابن حجر رحمه الله في شرح كلمات السيدة عائشة رضي الله عنها: قولها: (ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ) فيه ثبوت الغَيْرة، وأنه غير مستنكر وقوعها من

---

(١) البخاري.

فاضلات النساء، فضلاً عمن دونهن، وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي ﷺ، لكن كانت تغار من خديجة أكثر، وقد بينت سبب ذلك، وأنه لكثرة ذكر النبي ﷺ إياها.

وقولها: (هلكت قبل أن يتزوجني)... أشارت بذلك إلى أنها لو كانت موجودة في زمانها، لكانت غيرتها منها أشد[١].

اللهم هالة

وفي بعض الحالات كانت الغيرة تستبد بالسيدة عائشة رضي الله عنها، وتدفعها إلى التعريض بالسيدة خديجة رضي الله عنها، فيغضب ﷺ، ويرد على أم المؤمنين عائشة، يذكرها ببعض المناقب والفضائل التي انفردت بها السيدة خديجة رضي الله عنها، والتي لا يشاركها فيها غيرها من أمهات المؤمنين.

فتندم السيدة عائشة على ما بدر منها، وتقول معلنةً توبتها وندمها: (والذي بعثك بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير).

---

(١) فتح الباري ١٣٦/٧.

ولنستمع إلى القصة كاملة من السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: (استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: «اللهمَّ هالة» فغِرتُ، فقلتُ: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها)[1].

وقولها: (فعرف استئذان خديجة) أي صفته، لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكّر خديجة بذلك، ولهذا (ارتاع) أي فزع وظهر التأثر عليه ﷺ، ورواية مسلم في صحيحه بلفظ (ارتاح) أي اهتز لذلك سروراً.

ومر معنا في حديث آخر قول عائشة رضي الله عنها: فربما قلت له: كأن لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

وقوله ﷺ: «إنها كانت وكانت» أي كانت فاضلة، وكانت عاقلة، ونحو ذلك.

وفي مسند أحمد من حديث مسروق عن عائشة عن النبي ﷺ قال لها: «ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها

---

(١) صحيح البخاري.

إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»[1].

وفي رواية أخرى عند أحمد عن عائشة: فقلتُ: (أبدلك الله بكبيرة السن حديثة السن) فغضب حتى قلت: (والذي بعثك بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير).

ولعل مراد السيدة عائشة من قولها: (حمراء الشدقين) نسبتها إلى كبر السن، لأن من دخل في سن الشيخوخة مع قوة في بدنه، يغلب على لونه غالباً الحمرة المائلة إلى السمرة، والذي يتبادر أن المراد بالشدقين ما في باطن الفم، فكنّت بذلك عن سقوط أسنانها حتى لا يبقى داخل فمها إلا اللحم الأحمر من اللثة وغيرها، وبهذا جزم النووي وغيره[3].

قال النووي رحمه الله: في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً، وإكرام معارف ذلك الصاحب[4].

---

(١) انظر فتح الباري ١٣٧/٧.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه ١٤٠/٧.
(٤) المرجع نفسه ١٣٧/٧.

ومن غير رسول الله ﷺ يرعى حسن العهد ويحفظ الود؟ لقد بقي ﷺ يذكر زوجته الراحلة السيدة خديجة طول حياته، وظل يحفظ ودها ويرعى حرمة عشرتها، ويكرم صدائقها وأقاربها، وقد صرَّح ﷺ بحبه لها ودوامه عليه كما مر معنا في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رُزِقْتُ حبها»(١).

خير النساء

ومن فضائل خديجة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرن بينها وبين السيدة مريم في الخيرية والفضل، فقد جاء في الحديث الشريف الصحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» وأشار وكيع ـ أحد رجال السند ـ إلى السماء والأرض(٢).

وفضيلة السيدة مريم معلومة في آيات قرآنية كثيرة،

---

(١) صحيح مسلم.
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

فهي المرأة التي اختارها ربها لأعظم الآيات وأجل المعجزات، وطهّرها، وأعاذها منذ ولادتها من شر الشيطان، وخاطبتها الملائكة، قال تعالى: ﴿ إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ الله اصطفاك وطهَّرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريمُ اقنُتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾[1].

وشهد سبحانه لها بالصدِّيقيَّة، فقال: ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خَلَت مِنْ قَبْله الرسلُ وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يُؤفكون ﴾[2].

فذكْر السيدة خديجة رضي الله عنها مع السيدة مريم في الحديث الشريف يدل على المكانة الرفيعة لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

وقد اختلف العلماء من شرّاح كتب السنة في بيان المراد من الضميرين في قوله عليه الصلاة والسلام: «خير نسائها».

فوكيع بن الجراح، أحد رجال السند، أشار كما مر

---

(١) آل عمران ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) المائدة ٧٥.

معنا إلى السماء والأرض، فكأنه أراد أن يبين أن المراد: خير نساء الدنيا، وأن الضميرين يرجعان إلى الدنيا، وبهذا جزم القرطبي أيضاً.

وقال الطيبي: أراد أنهما خير من تحت السماء وفوق الأرض من النساء، والضمير الأول يعود على الأمة التي كانت فيها مريم، والضمير الثاني يعود على هذه الأمة.

وقد استظهر ابن حجر رحمه الله هذا الرأي فقال: والذي يظهر أن قوله: «خير نسائها» خبر مقدم، والضمير لمريم، فكأنه قال: خير نسائها، أي نساء زمانها، وكذا في خديجة، وقد جزم كثير من الشراح أن المراد نساء زمانها لما تقدم في أحاديث الأنبياء - في صحيح البخاري - من حديث أبي موسى رَفَعه: (كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية) فقد أثبت في هذا الحديث الكمال لآسية، كما أثبته لمريم، فامتنع حمل الخيرية في حديث الباب «خير نسائها» على الإطلاق، وجاء ما يفسر المراد صريحاً، فروى البزار والطبراني من حديث عمار بن ياسر رَفَعه: (لقد فُضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين) وهو حديث جسن الإسناد.

وقد أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم

من حديث ابن عباس: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية)[1].

ومهما قيل في هذا الحديث الشريف، فهو يدل على منقبة كبيرة من مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها، فهي واحدة من النساء الأربع اللواتي جمَّلهن الله تعالى بأجمل الصفات، وبوَّأهن أرفع المنازل.

(١) انظر فتح الباري ١٣٥/٧.

السيدتان

ولا بدَّ لنا هنا أن نذكر فضل أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد جاء في فضلها عدد من الأحاديث الشريفة[1]، أكتفي بذكر حديث واحد سبق ذكر بعضه قريباً، وهو حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهذا جعل العلماء ينقسمون في موضوع التفضيل إلى فريقين:

فريق ذهب إلى تفضيل السيدة خديجة على السيدة عائشة رضي الله عنهما، ومنهم السبكي رحمه الله الذي

---

(١) انظر: السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام.

قال: (الذي ندين الله به أن فاطمة أفضل، ثم خديجة، ثم عائشة)[1].

والفريق الآخر توقف، ومنهم ابن تيمية رحمه الله الذي قال: جهات الفضل بين خديجة وعائشة متقاربة[2]. وكذلك فعل تلميذه ابن القيم رحمه الله، فقد قال: إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله، فذاك أمر لا يُطلع عليه، فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح، وإن أريد كثرة العلم، فعائشة لا محالة، وإن أريد شرف الأصل ففاطمة لا محالة، وهي فضيلة لا يشاركها فيها غير أخواتها، وإن أريد شرف السيادة، فقد ثبت النص لفاطمة وحدها[3].

والنص الذي أشار إليه ابن القيم رحمه الله، هو الحديث الشريف الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لفاطمة: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ـ أو ـ سيدة نساء هذه الأمة» وهذا لفظ الإمام مسلم في صحيحه، ورواه الإمام البخاري في

---

(١) فتح الباري ٧/١٢٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه ٧/١٠٩.

صحيحه بلفظ: «أما ترضَين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ـ أو ـ نساء المؤمنين».

وأقول تعليقاً على قول ابن القيم رحمه الله: (وإن أريد بكثرة العلم فعائشة لا محالة) أقول: لو قُدِّر للسيدة خديجة رضي الله عنها أن تسمع من النبي ﷺ ما سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها منه، وأن تروي ما روت، لبلغت في العلم درجة عالية رفيعة كما بلغت السيدة عائشة، رضي الله عنهما، إذ مرَّ معنا من مواقف السيدة خديجة ما يدل على شدة ذكائها وسداد رأيها وبعد نظرها، رضي الله عنها.

قال ابن حجر رحمه الله: وأما ما امتازت به عائشة من فضل العلم، فإن لخديجة ما يقابله، وهي أنها أول من أجاب إلى الإسلام، ودعا إليه، وأعان على ثبوته بالنفس والمال والتوجه التام، فلها مثل أجر من جاء بعدها، ولا يقدر قدر ذلك إلا الله[1].

ومن الذين توقفوا في موضوع المفاضلة بين السيدتين خديجة وعائشة ابن كثير رحمه الله، فبعد أن بيَّن فضائل ومناقب كل منهما قال رحمه الله: والحق أن كلاً منهما

---

(١) فتح الباري ١٠٩/٧.

لها من الفضائل ما لو نظر إليه الناظر لبهره وحيَّره، والأحسن التوقف في ذلك إلى الله عز وجل، ومن حصل له دليل يقطع به أو يغلب على ظنه في هذا البـاب فذلك الذي يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم، ومن حصل له توقف في هذه المسألة أو في غيرها، فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول: الله أعلم[١].

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/١٣٧.

قلادة خديجة

كان لقلادة السيدة خديجة شأن وخبر في أجمل قصص السيرة النبوية.

السيدة زينب رضي الله عنها كبرى بنات النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها، زوَّجها ﷺ من أبي العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس بن عبد مناف، ابن أخت السيدة خديجة رضي الله عنها. أمه هالة بنت خويلد التي سبق ذكرها في الحديث الشريف: «اللهم هالة» وكانت السيدة خديجة تعد أبا العاص بن الربيع بمنزلة ولدها، ولما زُفَّت السيدة زينب إليه، أهدتها أمها خديجة قلادة، هدية زفافها.

ولما أراد المشركون أن يؤذوا رسول الله ﷺ في بناته كما مرّ معنا، وكلموا أبا العاص أن يطلق السيدة زينب، وعرضوا عليه في المقابل أن يزوجوه أيّ امرأة من قريش يشاء، رفض رضي الله عنه وقال لهم: لا والله إني لا

أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامـرأتي امرأة من قريش[1].

ولهذا أثنى عليه رسول الله ﷺ وقال: «أنكحت أبا العاص، فحدثني وصدقني، ووعدني فـوفى لي...» الحديث[2].

وعاشت السيدة زينب رضي الله عنهـا معه، وهي مسلمة، بينما هو لا يزال على شركه، فالآيات التي حرمت المسلمات على المشركين ما كانت قد نزلت بعد، وقدّر الله سبحانه أن يكون أبو العاص بن الربيع من جملة أسرى المشركين في غزوة بدر، وبعثت السيدة زينب رضي الله عنها في فداء زوجها القلادة التي أهدتها لها أمها السيدة خديجة يوم زفافها.

ولما رأى النبي ﷺ القلادة، رقَّ لها رقة شديدة، لقد أثارت القلادة في قلبه الشريف ﷺ ذكريات زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، فقال ﷺ لأصحابه، وعواطفه ومشاعره تضطرم في قلبه وصدره: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٤.

(٢) في صحيح البخاري، وسيأتي معنا كاملاً.

وطلب رسول الله ﷺ من أبي العاص قبل أن يُطْلِق سراحه، أن يفارق السيدة زينب، إذا ما أصر على كفره، فالإسلام فرق بينهما. وأرسل ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وأمرهما أن ينتظرا السيدة زينب خارج مكة ببطن يأجج، على الطريق إلى المدينة المنورة، لكي يكونا بصحبتها حتى تصل المدينة.

وفى أبو العاص بما وعد رسول الله ﷺ، وأمر السيدة زينب أن تسافر إلى أبيها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة.

وفارقت السيدة زينب زوجها الذي أحبها وأحبته، فحبها لدينها أعظم عندها من حبها لزوجها، وخرجت مسافرة إلى المدينة في هودج على بعير يقوده كنانة بن الربيع أخو زوجها.

واعترضها بعض سفهاء مشركي قريش، وكانوا حديثي عهد بمصابهم في غزوة بدر، وسبق إليها هبَّار بن الأسود ورجل آخر، ومعه رمح يلوِّح به، فروَّعها بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً فأسقطت حملها، وتذكر رواية ثانية: أن هباراً نخس البعير برمحه، فنفر البعير بها وأسقطها على صخرة، مما أدى إلى نزف دمها وإسقاط جنينها.

وبرك كنانة على الأرض، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فرجع الناس عنه، وأتى أبو سفيان ومعه رجال من قريش، فقال له: أيها الرجل كفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن النـاس إذ خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منّا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا من ذلك من ثؤرة - طلب الثأر - ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها، فسلَّها سراً وألحقها بأبيها.

ففعل كنانة بمشورة أبي سفيان، وأقامت السيدة زينب ليالي في مكة، ثم خرج بها ليلاً حتى أسلمها لزيد بن حارثة والأنصاري، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

وغضب ﷺ لما تعرضت له ابنته السيدة زينب. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها، فقال لنا: «إن ظفرتم بهبار بن الأسود، أو الرجل الآخر الذي سبق معه إلى زينب، فحرقوهما بالنار»، قال:

فلما كان الغد بعث إلينا، فقال: «إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما»[1].

ذكر ابن كثير هبار بن الأسود في جملة من ماتوا في السنة الثالثة عشرة من الهجرة فقال: هبار بن الأسود بن أسد القرشي الأسدي، هذا الرجل كان قد طعن راحلة زينب بنت النبي ﷺ، يوم خرجت من مكة حتى أسقطت، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، وقتل بأجنادين رضي الله عنه[2].

ومرت سنوات والسيدة زينب رضي الله عنها مفارقة لزوجها، وبينما كان قافلاً بتجارة فيها أموال لقريش اعترضته سرية من سرايا المسلمين، فأخذوا ما معه من أموال، وتمكن أبو العاص من الفرار فلم يقع في أيدي رجال السرية، ثم تسلل إلى المدينة المنورة ليلاً حتى دخل على زوجته السيدة زينب رضي الله عنها، فاستجار بها، فأجارته.

(١) رواه ابن إسحاق بسنده إلى أبي هريرة كما في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٨.
(٢) البداية والنهاية ٧/٣٤.

وانتظرت السيدة زينب حتى إذا خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر، وكبر للصلاة وكبر الناس، صرخت رضي الله عنها من بين صفوف النساء: أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلَّم رسول الله ﷺ، أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس هل سمعتم الذي سمعت»؟ قالوا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم»، قال ذلك ﷺ حتى لا يظن أحد أن النبي ﷺ اتفق مع ابنته السيدة زينب لتجير أبا العاص بن الربيع.

ثم دخل ﷺ على ابنته زينب فقال لها: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له».

قال ذلك ﷺ لأن أبا العاص لا يزال على كفره، ثم بعث ﷺ إلى رجال السرية، فحثهم على ردِّ ما كان مع أبي العاص من الأموال، فاستجابوا لرسول الله ﷺ وردُّوا عليه كل ما أخذوه منه.

ورجع أبو العاص بتجارته إلى مكة، وأعطى كل إنسان ما كان له، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فإني أشهد ألا إله إلا الله، وأن

محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني عن الإسلام عنده إلا تخوُّفُ أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغتُ منها أسلمت.

ثم خرج رضي الله عنه حتى قدم على رسول الله ﷺ، فردَّ عليه زينب على النكاح الأول، وكان بعد ست سنين من هجرتها رضي الله عنها إلى المدينة[1].

وذكر ابن حجر رحمه الله في الإصابة أن أبا العاص أسلم في المحرم سنة سبع.

ولم يدم اجتماع الزوجين الكريمين طويلاً، إذ قدَّر سبحانه أن يفرقهما الموت بعد اجتماعهما بزمن قصير، ففي أول السنة الثامنة من الهجرة توفيت السيدة زينب رضي الله عنها[2]، ولحقت بأمها السيدة خديجة رضي الله عنها، وحزن ﷺ على موت ابنته، وكفنها بإزاره، ففي الحديث الشريف عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ، قال لنا رسول الله ﷺ: «اغسلْنَها وِتراً ثلاثاً أو خمساً، واجعلْنَ في الخامسة كافوراً، أو شيئاً من كافور، فإذا غَسَلْتُنَّها

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ٢/٥٢١ مع تصرف قليل.
(٢) انظر الإصابة ٧/٦٦٦.

فأعلمنني» قالت: فأعلمناه، فأعطانا حِقْوه[1]، وقال: «أشْعِرْنَها إيَّاه»[2].

ومات أبو العاص رضي الله عنه بعدها بأربع سنين سنة اثنتي عشرة من الهجرة[3].

ولدت السيدة زينب من أبي العاص ولداً اسمه علي، عاش حتى ناهز الاحتلام، وتوفي في حياة النبي ﷺ، وولدت أيضاً بنتاً اسمها أمامة، كان ﷺ يحبها كثيراً ويدنيها منه، وفي الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام صلَّى وهو يحمل أمامة بنت زينب على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

وأهديت للنبي ﷺ مرة هدية فيها قلادة من جزَع[4]، فدعا ﷺ أمامة فعقدها بيده في عنقها[5] كأنها ذكرته ﷺ بقلادة خديجة رضي الله عنها.

---

(١) حِقْوه: إزاره الذي يشده على جسده.
(٢) أي اجعلنه شعاراً لها وألصقنه بجسدها. والحديث في صحيح مسلم.
(٣) فتح الباري ٧/٨٥.
(٤) نوع من الخرز الثمين.
(٥) الإصابة ٧/٥٠٢.

تزوجها علي بن أبي طالب بعد موت خالتها السيدة فاطمة رضي الله عنهم، وبعد استشهاد علي رضي الله عنه تزوجت المغيرة بن نوفل الهاشمي، وماتت عنده رضي الله عنها، ولم تلد لعلي ولا للمغيرة[1].

(١) المرجع نفسه.

السيدة فاطمة

وأخيراً لا بدَّ أن أتوج الحديث عن السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بالحديث عن ابنتها سيدة نساء المؤمنين السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، رضي الله عنها وعن أمها وأولادها وذريتها.

قال الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمتها:

فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين في زمانها، البَضعة النبوية، والجهة المصطفوية، أم أبيها[1]، بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، القرشية الهاشمية، وأم الحسنين[2].

---

(١) ذكر ابن حجر في الإصابة، وابن الأثير في أسد الغابة أنها كانت تكنى: أم أبيها.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٢٠.

وقد مرّ معنا من قريب أن النبي ﷺ، قال للسيدة فاطمة رضي الله عنها: «أما تَرْضَيْن أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ـ أو ـ نساء المؤمنين»، وإذا كانت رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة، فهي سيدة نساء العالمين(١).

ولا بدَّ أن أذكر الحديث كاملاً من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها، لما يظهر فيه من مناقب رفيعة للسيدة فاطمة رضي الله عنها.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: اجتمع نساء النبي ﷺ، فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بابنتي»، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسرّ إليها حديثاً، فبكت فاطمة، ثم إنه سارّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن!! فقلت لها حين بكت: أخصَّك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟! وسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى إذا قُبض سألتها، فقالت: إنه كان

---

(١) انظر كتاب السيدة عائشة أم المؤمنين للمؤلف.

حدثني «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وأنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك» فبكيتُ لذلك ثم إنه سارَّني فقال: «ألا تَرْضَيْن أن تكوني سيدة نساء المؤمنين - أو - سيدة نساء هذه الأمة» فضحكت لذلك(١).

فهي التي بقيت للنبي ﷺ من أولاده، إذ أُصيب بهم ﷺ في حياته، وما أبقى الله سبحانه له سوى السيدة فاطمة رضي الله عنها، فكانت سلوته وعزاءه ﷺ عن إخوتها وأخواتها، ولهذا كان ﷺ شديد المحبة لها، كثير التعلُّق بها رضي الله عنها يغضب لغضبها، ويرضى لرضاها، فعن المِسْوَر بن مخرمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بَضْعَة مني، فمن أغضبها أغضبني»(٢).

والبَضعة: القطعة، ودل الحديث الشريف على أن السيدة فاطمة رضي الله عنها أفضل بنات النبي ﷺ، وأما ما أخرجه الطحاوي وغيره من حديث عائشة في قصة مجيء زيد بن حارثة بزينب بنت رسول الله ﷺ من مكة -

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح البخاري.

كما سبق معنا ـ وفي آخره: قال النبي ﷺ: «هي أفضل بناتي، أصيبت فيّ» قال ابن حجر رحمه الله: فقد أجاب عنه بعض الأئمة بتقدير ثبوته بأن ذلك كان متقدماً، ثم وهب الله لفاطمة من الأحوال السنية والكمال ما لم يشاركها أحد من نساء هذه الأمة مطلقاً والله أعلم[1].

وإضافة إلى ما ذكره ابن حجر يمكن القول بأن تفضيل السيدة زينب يمكن أن يكون من جهة واحدة، هي كونها أُصيبت بسبب إيمانها، ففارقت زوجها وفقدت جنينها، رضي الله عنها، أما السَيدة فاطمة رضي الله عنها، فدلت الأحاديث على أفضليتها مطلقاً رضي الله عنها.

ولما سمعت السيدة فاطمة رضي الله عنها أن زوجها علي بن أبي طالب، يريد أن يتزوج عليها، غضبت رضي الله عنها، وأدركها ما يدرك النساء في مثل هذه الأحوال، فغضب ﷺ لغضبها، فعن المِسْوَر بن مخرمة قال:

«إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعمُ قومُك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهَّد يقول: «أما بعد:

(١) فتح الباري ١٠٦/٧.

أنكحتُ أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بَضْعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنتُ عدو الله عند رجل واحد» فترك عليٌّ الخطبة(١).

والمعروف أن النبي ﷺ قلَّ أن يواجه أحداً بما يُعابُ به، أو يصرح باسمه على رؤوس الناس، ولعله ﷺ إنما جهر بمعاتبة علي مبالغة في رضا السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكانت هذه الواقعة بعد فتح مكة، وكانت السيدة فاطمة قد أصيبت بأمها وإخوتها، ولا شك أن إدخال الغَيْرة عليها مما يزيد في حزنها رضي الله عنها، وترك علي رضي الله عنه الخطبة ولم يتزوج ولم يتسرَّ في حياتها حتى توفيت رضي الله عنها.

ومع ما لها رضي الله عنها من مكانة في قلب النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام، في حديث المرأة المخزومية التي سرقت في عهده ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها» وحاشاها رضي الله عنها أن تفعل ذلك ولكنه عدل الإسلام وعظمته.

---

(١) صحيح البخاري.

وما كان ﷺ يخصها بشيء دون غيرها من الناس، بل كان أحياناً يعطي الناس، ولا يعطي فاطمة رضي الله عنها مع شدة حاجتها، كانت رضي الله عنها تطحن بالرحى في بيتها حتى أثر الرحى بيديها.

فعن علي رضي الله عنه أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرّحى في يدها، وأتى النبي ﷺ سَبيٌ، فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة، فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ: «على مكانكما» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم»[١].

وفي رواية أبي هريرة: أن فاطمة أتت النبي ﷺ تسأله خادماً، وشكت العمل... الحديث[٢].

* * *

(١) رواه الستة.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

وكان ﷺ يعظها ويخوفها من الله تعالى كما يعظ غيرها من الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئاً»[1].

* * *

وتوفي رسول الله ﷺ في حياة السيدة فاطمة رضي الله عنها، كما أخبرها، وشهدت رضي الله عنها وفاته عليه الصلاة والسلام، ولا شك أنها كانت أشد الناس مصاباً به ﷺ، إذ هي أقرب الناس إليه. وصف أنس بن مالك رضي الله عنه حُزْنَ السيدة فاطمة رضي الله عنها على وفاة أبيها سيدنا رسول الله ﷺ فقال: لما ثَقُل النبي ﷺ، جعل يتغشّاه الكرب، فقالت فاطمة عليها السلام: واكربَ أبتاه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟![2].

---

(١) (٢) صحيح البخاري.

قلل ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: وأشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك، لأنه يدل على خلاف ما عرفته منهم، من رقة قلوبهم عليه لشدة محبتهم له، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره[1].

قال ابن الأثير رحمه الله: وما رُئيَتْ ـ السيدة فاطمة ـ ضاحكة بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى لحقت بالله عز وجل، ووجدت عليه وجداً عظيماً[2]، أي حزنت عليه حزناً عظيماً.

* * *

وسألت رضي الله عنها الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه ميراثها من أبيها رسول الله ﷺ، فأبى رضي الله عنه أن يدفع إلى السيدة فاطمة منه شيئاً، واحتج بقول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»، وقال رضي الله عنه: إنما يأكل آل محمد من هذا المال ـ أي من بيت مال المسلمين ـ وإني والله لا أغيِّر شيئاً من صدقة

---

(١) فتح الباري ٨/١٤٩.
(٢) أسد الغابة ٧/٢٢٥.

رسول الله ﷺ[1]، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: فوجدت فاطمة رضي الله عنها على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت[2].

ميـراث الأنبيـاء

وما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الحق الذي يجب عليه أن يفعله، ووافقه الصحابة رضي الله عنهم عليه، وقد رواه عن النبي ﷺ غير أبي بكر من الصحـابـة، ففي صحيـح مسلم عن أبي هـريـرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة»، وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قـال: «لا نورث مـا تركنـا صدقة».

فمن خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم لا يورثون ديناراً ولا درهماً تنزيهاً لهم عن أي غرض من أغراض الدنيا، فلا همَّ لهم إلا تبليغ دعوة الله تعالى، عن أبي الـدرداء رضـي الله عنـه، قـال: سـمعـت رسول الله ﷺ يقول: «. . . وإن العلماء ورثة الأنبياء،

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح البخاري.

وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

والجدير بالذكر أن الخميني وشيعته اتهموا أبا بكر الصديق رضي الله عنه بمخالفة حكم القرآن الكريم في هذا الأمر، مع أنه رضي الله عنه التزم بتطبيق أمر الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾، وقوله أيضاً: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تلزم كل مسلم ومسلمة بطاعة رسول الله ﷺ.

قال الخميني في كتابه كشف الأسرار: طبقاً لقانون الإرث من وجهة النظر القرآنية، فإن فاطمة الزهراء بنت رسول الله كانت أحق بتركة النبي، ولكن أبا بكر، بعد أن صار خليفة، خالف حكم القرآن الصريح، وحرمها من التركة وعرض على الناس حديثاً نسبه إلى الرسول يقول فيه: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[2].

وجهل الخميني أن عموم الآيات القرآنية الكريمة يمكن تخصيصها بآيات كريمة أخرى أو بالأحاديث النبوية الصحيحة، وأن الله تعالى خص الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.
(٢) الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام، للشيخ محمد منظور النعماني.

والسلام بخصوصيات، منها أنهم لا يورِّثون مالاً، وأنه لا مصلحة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه من فعله الذي فعله، بل إنه يؤثِّر على ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها، لأنها من أمهات المؤمنين اللائي لهن نصيب في ميراث النبي ﷺ، لو كان شأنه في الميراث كشأن عامة الناس.

وأما تعريض الخميني بأبي بكر الصديق واتهامه له بالكذب على رسول الله ﷺ، فإن الله سبحانه هو الذي يدافع عن المؤمنين، وأبو بكر رضي الله عنه أصدقهم وأفضلهم بعد الأنبياء والمرسلين: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾(١)، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾(٢).

* * *

توفيت السيدة فاطمة رضي الله عنها بعد النبي ﷺ بستة أشهر، فلم تطل حياتها بعده عليه الصلاة والسلام، فكانت أول أهله لحوقاً به، كما أخبرها ﷺ في الحديث الذي مرّ معنا، ففي الصحيحين من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: وعاشت ـ أي السيدة فاطمة ـ بعد

---

(١) الحج ٣٨.

(٢) الشعراء ٢٢٧.

النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها عليٌّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر وصلَّى عليها.

* * *

وكانت رضي الله عنها تحب للمرأة أن تستر نفسها عن الرجال الأجانب عنها وأن تبالغ في ذلك، فعن الحسن البصري، قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «أي شيء خير للمرأة؟»، فلم يكن عندنا لذلك جواب، فلما رجعت إلى فاطمة، قالت: ليس خير للمرأة من أن لا ترى رجلاً ولا يراها، ولما سمع النبي ﷺ قولها، قال: «صدقت إنها بَضعة مني»[1].

ولهذا أوصت رضي الله عنها ألا يدخل عليها أحد بعد موتها وأن تغطى في أثناء غسلها، روي عنها أنها قالت لأسماء بنت عميس رضي الله عنهما: يا أسماء إني استقبحتُ ما يُصنع بالنساء، إنه يُطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة[2] فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد وحسنه.

(٢) من أشجار النخل.

وأجمله! تُعرَفُ به المرأة من الرجـال، فإذا أنـا متّ فاغسليني أنت وعليٌّ، ولا تُدخلي عليَّ أحداً[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أصـدق لهجةً من فـاطمـة، إلا أن يكـون الـذي ولدَها ﷺ[٢].

* * *

توفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لثـلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة وهي ابنة تسع وعشرين سنة، ووُلدت قبل النبوة بخمس سنين رضي الله عنها[٣].

---

(١) (٢) (٣) الاستيعاب ٤/١٨٩٧.

خاتمة

في العام الثامن من هجرة النبي ﷺ وبعد أكثر من عشر سنوات مرت على وفاة السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، وحوله كتائب الإيمان تكبِّر وتهلل في يوم من أعظم الأيام في تاريخ الإسلام.

وعندما دنا موكب الفتح من الحجون أمر ﷺ أن ترفع راية الفتح فوق الحجون وتثبت في أعلاه.

وكأنه ﷺ أراد أن تشاركه زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها فرحة الفتح والنصر، النصر الذي كانت السيدة تبشر النبي ﷺ به، النصر الذي أسهمت السيدة رضي الله عنها في تحقيقه ببذلها وصبرها ومصابرتها وتثبيتها وتبشيرها، وقضت رضي الله عنها قبل أن تكتحل عيناها به، ماتت رضي الله عنها في المحنة، فوقع أجرها على الله تعالى، وظلت راية الفتح خفاقة، وامتد الفتح إلى جنبات الأرض ولا يزال القارىء يقرأ قوله تعالى:

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم ﴾[1].

أسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن اتبعوا السابقين الأولين بإحسان، وأن يثبتنا على طريقهم، ويحشرنا في زمرتهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) التوبة ١٠٠.

أم المؤمنين السيدة خديجة(١)

يَا خِدْرَهَا كَم كُنْتَ مِعْرَاجَ الْهُدىٰ
يَا خِدْرَهَا أَوَ مَـا اهْتَزَزْتَ إِلَى النِّدَا
يَا خِدْرَهَا كَمْ كُنْتَ مَشْرِقَ رَحْمَةٍ
وَكَمِ اسْتَفَاضَ النُّورُ فِيكَ وَغَرَّدَا
في كُـلِّ يـومٍ غَـدْوَةٌ أَوْ رَوْحَـةٌ
لِلرُّوحِ إِذْ يَلْقى لَـدَيْكَ مُحَمَّـدَا
وَيَجِيءُ جِبْـرِيـلُ الأَمِينُ مُحَيِّيـاً
مِنْ رَبِّـهِ يُلْقِي السَّـلاَمَ مُـرَدِّدَا
وَمُبَشِّـراً بِـالْبَيْتِ مِنْ قَصَبٍ لَهَـا
فِي قِمَّـةِ الْفِـرْدَوْسِ رَبِّي شَيَّـدَا
مَا مِثْلُ خِدْرِكِ يَا خَدِيجَةُ رِفْعَـةً
طُهْـراً وَتَشْـرِيفـاً وَمَجْـداً مُفْـرَدَا

---

(١) يسرني أن أزين خاتمة الكتاب بهذه القصيدة لزميلي في المعهد العالي للأئمة والدعاة فضيلة الشيخ محمد بدر الدين حفظه الله تعالى.

لَـوْلَا حِـرَاءُ لَكُنْتَ أَوَّلَ مَنْـزِلٍ
أَهْدَى إِلَى الدُّنْيَا الرِّسَالَةَ وَالْهُدَى

يَـا لَلْجَلَالِ وَأَنْتَ تُؤْوِي أَحْمَـدَا
وَتَرَى الَّذِي أَوْلَتْ خَدِيجَةُ أَحْمَدَا

آفَـاقُ مَكَّـةَ كُلُّهَـا عِطْرٌ سَـرَى
وَحَـدِيثُ إِعْجَابٍ يَهُـزُّ الْمُنْتَـدَى
وَفَتىً يُعَـانِقُـهُ الْجَـلَالُ إِذَا غَـدَا
وَتَغُضُّ هَيْبَتُـهُ الْعُيُـونَ إِذَا بَـدَا
حَـدَثـاً يُسَمَّى بِـالأَمِينِ وَكَفُّـهُ
غَيْثٌ لِمَنْ فِي النَّاسِ يَفْتَقِدُ النَّدَى
لَمْ تَعْرِفِ الْبَطْحَاءُ فِي أَزْمَانِهَـا
مَثَلاً لَهُ: خُلُقـاً كَأَنْفَـاسِ النَّدَى
لَا تُـطْفِئُ الْبَأْسَـاءُ مِنْ إِشْـرَاقِـهِ
كَـلَّا وَلَا الْجَدْبَـاءُ تُنْسِيهِ الْجَـدَا
عَفَّ اللِّسَـانِ أَمِينَهُمْ وَصَدُوقَهُـمْ
أَبَتِ الْمَحَـامِـدُ قَبْلَهُ أَنْ تُحْشَـدَا

قَـدْ هَـزَّ سَيِّـدَةَ النِّسَـاءِ حَـدِيثُـهُ
فَسَعَى إِلَيْـهِ عَبْـدُهَـا مُتَـوَدِّدَا

وَيُسَافِرُ الْفَطِنُ الأَمِينُ بِمَالِهَا
وَيَعُودُ بِالرِّبْحِ الْعَظِيمِ مُزَوَّدَا
وَخَدِيجَةُ اللَّهْفَى تُسَائِلُ عَبْدَهَا
عَمَّا جَرَى فَيَقُصُّه مُسْتَحْمِدَا
يَحْكِي عَنِ الأَمْوَالِ كَيْفَ تَكَاثَرَتْ
وَيُفِيضُ فِي الرِّبْحِ الْعَظِيمِ مُعَدِّدَا
وَخَدِيجَةٌ لَمْ تَدْرِ مِنْ أَقْوَالِهِ
إِلَّا حَدِيثاً قَدْ يَمَسُّ مُحَمَّدَا
وَأَحَسَّ مَيْسَرَةٌ كَوَامِنَ سِرِّهَا
فَطَوَى مِنَ الأَمْوَالِ مَا قَدْ عَدَّدَا
سَأَلَتْهُ مَا بَالُ الأَمِينِ فَقَالَ يَا
لَلَّهِ لَمْ أَشْهَدْ أَبَرَّ وَأَمْجَدَا
بَرَكَاتُه زَادَتْ تِجَارَتَنَا وَقَدْ
شَهِدَتْ عُيُونِي فَوْقَ ذَلِكَ مَشْهَدَا
فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ تَجِيءُ غَمَامَةٌ
تَحْنُو عَلَيْهِ إِذَا الْهَجِيرُ تَوَقَّدَا
شَاهَدْتُهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ إِنْ يَسِرْ
سَارَتْ وَتَمْكُثُ إِنْ تَبَوَّأَ مَقْعَدَا

سَبَحتْ خَدِيجَةُ فِي خَوَاطِرِ أمْسِهَا
وَالشَّوْقُ فِي طَيِّ الضُّلُوعِ تَوَقَّدَا
مَـنْ ذَا يُـبَـلِّغُـهُ بِـأَنَّ فُـؤَادَهَـا
أَرِقُ الْخَـوَاطِرِ قَـدْ أَحَبَّ مُحَمَّدَا

بَـعَـثَـتْ إِلَـيْـهِ وَإِنَّـهَـا لأَبِـيَّـةٌ
مَـاذَا عَلَيْهَـا أَنْ أَحَبَّتْ أَحْمَـدَا

مَـاذَا إِذَا خَـطَبَتْـهُ وَهْيَ عَفِيفَـةٌ
أَتُعَابُ مَنْ تَرْجُو الزَّوَاجَ لِتَسْعَـدَا
كَمْ سَيِّدٍ قَدْ جَـاءَ يَخْطُبُ وُدَّهَـا
لَكِنَّهَـا رَضِيَتْ مُحَـمَّـدَ سَيِّـدَا
إِيـهٍ خَـدِيجَةُ قَـدْ سَنَنْـتِ شَرِيعَـةً
وَأَبَـى فُؤَادُكَ عِـزَّةً أَنْ يَـخْـمُـدَا
وَجَعَلْتِ لِـلْفَتَـيَـاتِ حَقَّ تَـخَيُّـرِ
أَفَكُنْتِ تَـدْرِينَ الَّذِي يَـأتِي غَدَا
وَرَضِيتِ بِـالشَّهْمِ الْفَقِيـرِ وَقَبْلَهُ
أَعْـرَضْتِ عَمَّنْ فِي غِنَـاهُ تَفَـرَّدَا

يَا خِدْرَهَا وَغَدَوْتَ مِعْرَاجَ الْهُدَى
لَمَّا اسْتَفَاضَ النُّـورُ فِيكَ وَغَـرَّدَا

يَـا حُبَّهَا قَـدْ كُنْتَ سَلْوَى أَحْمَدٍ
إِمَّـا تَحَيَّرَ فِي الْحَيَـاةِ وَسُهِّـدَا

يَا صَبْرَهَـا وَالنَّاسُ حَـوْلَ حَبِيبِهَا
رَصَـدٌ يُذِيبُ الشَّـامِخَ الْمُتَشَـدِّدَا

يَا آيَةَ الإِخْلاَصِ كَيْفَ رِضَاؤُهَـا
بِـذَهَـابِـهِ لِلْغَـارِ كَيْ يَتَعَبَّـدَا

أَمَّا الْبُـطُولَـةُ إِذْ رَأَتْـهُ مُفَـزَّعَـاً
يَرْجُو الـدِّثَارَ فَمَـا أَجَلَّ وَأَمْجَـدَا

وَحَـدِيثُهَا وَاللَّهِ لَنْ تَخْـزَى سَرَى
فِي نَفْسِهِ كَالرِّيِّ فِي إِثْرِ الصَّدَى

وَالْحَبُّ تَبْـذُلُـهُ كَـرِيمـاً طَيِّبـاً
وَتُعِينُـهُ بِـالْمَـالِ حَتَّى يَصْمُـدَا

رَضِيَتْـهُ زَوْجاً فِي الْحَيَـاةِ وَسَيِّدَاً
لِلْقَلْبِ ثُمَّ أَوَتْ إِلَيْـهِ مُـرْشِـدَا

حَتَّى انْتَهَتْ أَيَّـامُهَـا تَـرَكَتْ بِـهِ
جُـرْحاً إِذَا بَلِيَ الـزَّمَانُ تَجَـدَّدَا

عَـامٌ مِنَ الأَحْـزَانِ عَـامُ فِـرَاقِهَـا
لاَ شَيْءَ يُنْسِيهِ وَإِنْ يَكُ قَدْ بَدَا

كَـانَتْ لَدَيْـهِ وَحْدَهَـا وَكَفَى بِهَـا
يَنْضُـو لَدَى أَحْضَـانِهَا مَـا أَجْهَدَا
لَمْ يَشْـكُ مِنْهَـا مَــرَّةً أَوْ تَجْفُـهُ
يَـوْماً وَكَـانَ هَنَـاؤُهَـا أَنْ يَسْعَـدَا
وَلَئِنْ تَعَـدَّدَتِ الْحَـلَائِـلُ بَعْـدَهَـا
فَلَقَدْ تَذَكَّرَهَا عَلَى طُـولِ الْمَدَى
وَيَحِنُّ إِذْ يَلْقَى قَــرِيبَتَهَــا كَمَــا
لَوْ كَانَ يَلْقَـاهَا وَيُشْجِيـهِ الصَّدَى
اللَّهُمَّ «هَـالَـةُ» يَـا حَنَـانـاً دَافِقـاً
مِنْ قَلْبِـهِ يَحْكِي الْـوَفَـاءَ مُجَـرَّدَا
وَحَـدِيثُ عَـائِشَـةٍ وَغَيْـرَتِهَـا وَمَـا
قَــالَ النَّبِيُّ مَعَـالِمُ لَنْ تُجْحَــدَا
يَنْهَـلُ وَالـدَّمَعَـاتُ مِـلْءُ حَـدِيثِـهِ
أَنْ لَيْسَ أَكْرَمُ مِنْ خَدِيجَةَ مَحْتِدَا
آوَتْ وَأَهْــدَتْ مَـالَهَــا وَتَحَمَّلَتْ
وَالشَّـرُّ فِي الْـوَادِي عَلَيَّ تَجَـرَّدَا

وَالْعِتْــرَةُ الْغُـرُّ الْكِــرَامُ جَمِيعُهُمْ
مِنْ نَسْلِهَـا أَعْلَامُ صِـدْقٍ لِلْهُدَى

يَا خِدْرَهَا كَمْ كُنْتَ مِعْرَاجَ الْهُدَى
وَكَمِ اسْتَفَاضَ النُورُ مِنْكَ وَغَرَّدَا

أَهْـدَيْتِنَـا آلَ الـنَّبِـيِّ أَمَـاجِـداً
حَمَلُوا لَنَا نُـورَ النُّبُـوَّةِ مُـرْشِـدَا

فِي وَجْهِهِمْ تَلْقَى مَـآثِـرَ جَـدِّهِمْ
وَبِـحُبِّـهِمْ وَحْـيُ الْـمُـهَيْـمِنِ رَدَّدَا

يَـا قَبْرَهَـا وَلَـدَيْـكَ أَكْـرَمُ زَوْجَـةٍ
أَرْضَتْ سَـرَائِـرُهَـا النَّبِيَّ مُحَمَّـدَا

لَوْ أَنَّ فِي التَّارِيخِ أَسْطُرَ جَـوْهَرٍ
لَحَبَا بِهَا زَوْجَ الـرسُولِ وَمَجَّـدَا

يَـا لَلْبُـطُولَـةِ فِي الـزَّمَـانِ تَفَـرُّدَا
وَالصَّبْرُ وَالإِخْلَاصُ فِيـكِ تَجَسَّدَا

المَـــرَاجع

- كتب السنة المعتمدة.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، توزيع ونشر إدارات البحوث.
- البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.
- السيـرة النبويـة، لابن كثير، تحقيق مصـطفى عبد الواحد.
- السيرة النبوية، لابن هشام، مكتبة الكليات الأزهرية.
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، للسهيلي، توزيع دار الباز في مكة.
- سبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الشامي، تحقيق مصطفى عبد الواحد.
- سيرة نبي الهدى والرحمة، عبد السلام حافظ، رابطة العالم الإسلامي.
- حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار القلم بدمشق.

- السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، للمؤلف، دار القلم بدمشق.
- النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب، للمؤلف، دار القلم بدمشق.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، مكتبة الدراسات الإسلامية.
- أسد الغابة، لابن الأثير، كتاب الشعب.
- خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين، للجمل، دار الاعتصام.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، مكتبة نهضة مصر.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني.
- فتح القدير، للشوكاني، مكتبة المعارف بالرياض.
- شرح الشفا، للقاري، تحقيق حسنين مخلوف.
- أخبار مكة، لأبي الوليد الأزرقي، دار الثقافة بمكة.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي.
- الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام، للشيخ محمد منظور النعماني كبير علماء الهند، دار عمار، عمان.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذه السيدة	٧
المقدمة	٧
الفصل الأول: السيدة خديجة والخِطبة والزواج	١١ ـ ٤٠
اسمها ونسبها	١٣
والدها	١٤
والدة خديجة	١٥
زواجها قبل النبي ﷺ	١٥
الأمين والطاهرة	١٨
طلب الرزق	٢٠
الاتِّجار بمال خديجة	٢١
ميسرةُ يتحدّث	٢٣
أمنية خديجة	٢٥
مقدمات الخِطبة	٢٧
الخِطبة المباركة والزواج الميمون	٢٩
روايات منكرة وباطلة	٣٢

عُمْر الزوجين ٣٥
الفصل الثاني: بيت النبوة .... ٤١ ـ ٦٠
الزوجة الكريمة الصالحة ٤٣
سيدة البيت ٤٨
بيت خديجة ٥٢
هند بن أبي هالة ٥٣
علي بن أبي طالب ٥٧
زيد بن حارثة ٥٨
أم أيمن ٦٠
الفصل الثالث: تثبيت وتصديق .... ٦١ ـ ٨٢
تباشير النبوة ٦٣
الرؤيا الصادقة ٦٥
في غار حراء ٦٦
لقاء الأمينَيْن ٦٩
العودة إلى خديجة ٧١
ورقة بن نوفل ٧٣
الاختبار ٧٧
الظهور الكامل ٧٨
السبَّاقة إلى الإسلام ٨٠
الفصل الرابع: مؤازرة ومصابرة .... ٨٣ ـ ٩٩
الدور الجديد ٨٥

رقية وأم كلثوم ٨٦
المقاطعة........................... ٨٨
عام الحزن.......................... ٩٣
ـ وفاة أبي طالب........................ ٩٣
ـ وفاة خديجة رضي الله عنها............ ٩٥
ابتسامة خديجة ٩٦
الفصل الخامس: ذكرى خديجة.......... ١٠١ ـ ١٣٨
غَيْرة عائشة ١٠٣
اللهم هالة ١٠٦
خير النساء........................ ١٠٩
السيدتان........................ ١١٣
قلادة خديجة ١١٧
السيدة فاطمة ١٢٦
ميراث الأنبياء........................ ١٣٤
خاتمة........................ ١٣٩
قصيدة ثناء (أم المؤمنين. . .) ١٤١
المراجع ١٤٩
فهرس ١٥١

إقــرأ للمؤلف

في التفسير الموضوعي سلسلة من موضوعات سور القرآن الكريم تبرز معاني آيات السورة من خلال موضوعهـا. صدر منها:

١ ـ النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.
٢ ـ المعجزة والإعجاز في سورة النمل.
٣ ـ العواصم من الفتن في سورة الكهف.
٤ ـ الحلال والحرام في سورة المائدة.
٥ ـ المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.
٦ ـ الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج.
٧ ـ الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.
٨ ـ الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر.

تحــت الطبــع:

٩ ـ التوراة والإنجيل في سورة آل عمران.
١٠ ـ التوحيد والتنزيل في سورة مريم.
١١ ـ الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف.
١٢ ـ بصائر الحق في سورة الأنعام.

في التراجم:

- عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام.
- أنس بن مالك الخادم الأمين والمحب العظيم.
- العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد.
- معاذ بن جبل إمام العلماء ومعلم الناس الخير.
- عبد الله بن عباس الإمام البحر وعالم العصر.

وفي الموضوعات الفقهية المعاصرة:

- الأنساب والأولاد: دراسة لمواقف الشريعة الإسلامية من التلقيح الصناعي.

وفي الموضوعات الفكرية الإسلامية:

- حياتنا والموعد المجهول.

أعلام المسلمين

سلسلة كتابية هادفة تترجم
لأعلام المسلمين في شتى الميادين

تترجم هذه السلسلة لأعلام المسلمين وقادتهم، الهداة الدُّعاة المخلصين، الذين عاشوا لهذا الدين: يخدمونه، ويبذلون النفس والنفيس من أجله، والذين كان همّهم الأعظم في حياتهم نصرته، ورفع لوائه، ودعوة الناس إليه، ومجاهدة أعدائه بالقلم واللسان أو بالسيف والسنان.

وستتّسع إن شاء الله تعالى لرجالات الإسلام العِظام، من عهد الصحابة رضي الله عنهم وإلى يوم الناس هذا، وستكون بعونه تعالى فتحاً جديداً في عرض تاريخ الإسلام، ممثلاً في سير أعلامه، الذين كان لهم أكبر الأثر في حياة المسلمين وتاريخهم على مرِّ العصور.

يشترك في تحريرها نخبة من أصحاب الأقلام الإسلامية الواعية.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.

٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.

١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.

١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د.تقي الدين الندوي المظاهري.

١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.

١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.

١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب.
٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.

تحت الطبع:

٣٢ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف: د. محمد الزحيلي.
٣٣ ـ زيد بن ثابت
تأليف: صفوان داوودي.
٣٤ ـ أبو عبيد قاسم بن سلّام
تأليف: سائد بكداش.